آلام السيد معروف

قصص

غائب طعمة فرمان

الفارابي



الآلام

السيد معروف

آلام السيد معروف

قصص

غائب طعمة فرمان



١٩٨٢

دار الفارابي ص. ب. ٣١٨١
بيروت تلفون ٣١٧٢٠٥

الطبعة الأولى ١٩٨٢

إلى الشهداء الأحياء
ممن لهم شبه بالسيد معروف .
غائب

للغروب فتنة لدى السيد معروف لا تعادلها فتنة أخرى في الدنيا كلها . كان إذا استقبله من ركنه المنزوي في المقهى المطل على النهر لم يعد يستهويه أي شيء آخر فيما حوله ؛ لا الطيور التي كانت ترف فوقه منقضة على صدر النهر ، مصعّدة في السماء الشفافة ، حتى تغيب عن الدنيا ، لأنه يعرف أن الطيور ستعود ، في آخر الأمر ، إلى وكناتها ، ولا الغمام السابح كالقطن المنفوش لأنه سرعان ما يندمج في الأفق ويتبدد ، ولا الطائرات التي كانت ، أحياناً ، تلوح من خلف صف النخيل في الجانب الآخر من النهر ، وتحلق ، وتصفر ، وتغيب عن العين ، لأنه كان يعرف أنها ستحط في مطار من مطارات العالم الواسع . . أما هذا الغروب الساجي فيظل يطوي الآماد ، ويعانق الآفاق ، ويظل يلازمها إلى ما لا نهاية ، هارباً من ظلامية الليل التي كان السيد معروف يكرهها كرهاً شديداً ، فَيَوَدُّ لو يلاحقه إلى الأبد ، معانقاً مثله الآفاق ، دون أن يشهد الليل الكئيب ، أو الظلام المتوحِّش ، حتى كان يردد ، أحياناً ، مستغفراً الله عن تحريفه لكلامه المنزَّل : « ولكم في الغروب حياة يا أولي الالباب »! فالعمر مع رحلة الغروب ، يتمدد ساعات تعوِّض عن خسارة يوم قضاه بين أربعة جدران وراء آلة طابعة عتيقة منحوسة تسبب له آلاماً بالمفاصل ، ومغصاً بالمعدة ، ووشوشة في الأذنين ، وزغللة في العينين . شيء في الغروب شجي وبهيج وفاتن وعنود فيه سحر الديمومة ، وفتنة الأزل ومطال الأجل لا مثل الشروق الخاطف سرعان ما يسلم زمامه إلى شمس لاهبة ، وهواء وغر . والغروب بعد

كل شيء ، صار رمز حياته. حياة السيد معروف الآيلة إلى الغروب ، حياته الشاحبة المتراجعة المتقلصة ، المتراكضة ، كالغروب نفسه ، نحو هوة أفق غامض ، دون أن يستطيع أن يمسك بها ، أن يوقفها ، ويتأمل فيها ، كما لا يستطيع أن يوقف الغروب ، ليتأمل فيه . وكان السيد معروف يدرك ، في قرارة نفسه ، أن من اليأس أن يتعشّق المرء الغروب لا الشروق. لكنه يعود فيقول لنفسه : كيف يعشق المرء شيئاً لا يذكر أنه رآه ، في مجده المروي والمحكي عنه ، في أي يوم من أيام حياته. فقد كانت الشمس تنبع من وراء ألف جدار ، في مدينته الملتفة على نفسها ، كالشرنقة المتلاصقة الجدران ، الضيقة الأزقة ، المدينة المتراخية التي تربَّى فيها وقضى شبابه ، ويقضي الآن كهولته العامرة بالإيمان. الشروق بداية نهار لاغب ، موقر بالتعب ، وحرق الأعصاب ، دون أي جدوى ولا أية فرحة ، ولا أي ثقب صغير في السماء يمكن أن يرى فيه نجمة ويستطيع بثقة أن يوسعه إذا لاح له في المنام . أما الغروب فقد كان يراه في مجده الأرجواني ، كلما جاء إلى مقهاه ، أي في كل يوم تقريباً ، في سماء صافية صاحية من خلال سحب مهلهلة الأذيال ، يسهل على الغروب الهارب أن يضرم فيها النار ، وحتى حين كانت زوابع الرمل تهب قادمة من أُمِّنا الصحراء يتمرغ الغروب كل مساء على صدرها الحنون الرحب ذي الاثداء الألف من كثبان الرمال ، فتتلون ذرات الرمل بصبغة كدرة من لونه الناصل الحمرة ، فترى الغروب يرقص في شوارع المدينة ، ويلون الوجوه والأشياء والهواء نفسه ، ويتجلى بكل عظمته المهيبة المدججة برمال الصحراء . وكان السيد معروف يأتي إلى الغروب كالمستجير هارباً من مشاكل بيته الصغيرة والعويصة في نفس الوقت ، سارحاً في مراعيه الوردية بنعاج خياله ، فيتخيل

الأراضي والبحار والجبال والوديان والأنهار والبحيرات والمدن والقرى التي مرّ بها الغروب، ويظل يتابع مساره مثلما سيتابعه اليوم. في البداية سيختفي وراء خط النخيل، تاركاً الجانب الشرقي بين مخالب ليل مفترس، ثم يتعدى حدود المدينة العريقة بسرعته الضوئية الخارقة، ويطل على مشارف الشام، ثم يدخل فاتحاً دمشق، مجتاحاً عمان، وبعد ذلك يتسلق جبال لبنان، أو عقاب لبنان، على حدّ قول الخالد الذكر شاعرنا المتنبي، ويضرِّج مسالكها الخضراء، وذراها البيضاء، ثم يسقط على مياه المتوسط الزرقاء الشفافة على ما يتصورها، ويظل السيد معروف يمتطي صهوة جواده، ويتسلم مفاتيح المدن التي يغزوها الغروب الفاتح بأمر الله.

اليوم خرج السيد معروف من البيت مهموماً تلاحقه أنّات أمه، وتوجعاتها المزمنة. كانت السماء صاحية، والشفق يلون ذرات الغبار العالقة بالهواء. وفي الشوارع حركة مرحة ضاجة، والناس صاخبون منفعلون، وكأنهم يتهيأون لمغامرة مع المساء، على بعد أمتار. سيتسلق درجاته الثلاث، ويسلم رافعاً ذراعه لصاحبه ذي اللحية الخفيفة البيضاء، ويقطع القاعة المتشنجة برنات قطع الدومينو والطاولى (النرد)، ويدلف من باب الزجاج يؤدي به إلى شرفة واسعة، أشبه بشناشيل، واجهتها المطلة على النهر نوافذ زجاجية ترتفع عن أرض المقهى بحوالي متر، وتنتهي بنصف دائرة من الزجاج الملون أشبه بالمروحة اليدوية. وسيجد الطلاب منكبين على كتبهم، والصمت والهمس يدغدغان الأعصاب ويهيئان النفس إلى صلاة ومناجاة. سيسلم على بعض من يعرفهم، بإنحناءة خفيفة لا تقطع على الطالب خيط أفكاره الرقيق، ويتجه إلى ركنه المعهود، مصلاه، ويقابل الشمس في انحدارها الانسيابي خلف أهداب أشجار

النخيل في الجانب الآخر من النهر ، كالميناء الذي ستقلع منه سفينة الأحلام .

« نعتذر لزبائننا الكرام على غلق المقهى أيام قليلة لتوفير الراحة لهم » .

لم يقرأ هذه الرقعة إلاّ بعد أن صعد درجتين . كانت مكتوبة بخط سيء ، وبخطأ نحوي ظاهر يذكّره بالكثير من المراسلات الرسمية التي تمر بين يديه كل يوم ، والتي لم يعد يحفل بها ليأسه من إصلاحها . ولكن هذا الكتاب غير المرقم صدمه بعنف ، حتى همّ أن يخلعه ، ويمزقه ، مثلما يمزق كتاباً أخطأ في ضرب بعض كلماته على آلته العتيقة . وقف مشدوهاً من المفاجأة ، ممتعضاً من الخطأ النحوي القبيح يطل من الورقة البيضاء ، مثل تكشيرة استهزاء يواجهه بها وجه صلف . زمَّ السيد معروف شفتيه وكوَّرهما ، ومطّهما باشمئزاز . وخلال ذلك تجمع بعض الزبائن ، وقرأوا الإعلان سراً وجهارة ، وضحكوا ضحكات شتى لم تدخل واحدة منها السلوى في قلب السيد معروف ، الذي أضاع لقاءً منتظراً مع وجهٍ حبيب . وبدأ الآخرون يعلقون :

- سيفرشون لنا المقهى بالكاشان .
- ويبدلون الدومينو بأخرى من العاج .
- ويضاعفون السعر .
- سنجلس على آرائك .
- كل شيء إلاّ هذا . . لا يريدون أن نضعف .
- بالعكس يريدون أن نتعب من الجلوس ، فننصرف ويحل آخرون محلنا .

نفر من هذه التعليقات السخيفة ، وتجمل بالهرب ، ونسي أنه

صعد درجتين، فاختلَّ توازنه، وكاد يقع لو لم يصطدم برجل سمين امتص الصدمة كالمنفاخ. إعتذر من فم جاف. وفي الطريق قال في نفسه: مساكين هؤلاء لا يهمهم إلاّ الدومينو والطاولي، لو جردوا من كراسيهم ومناضدهم، وفرشت لهم الأرض، لتربعوا أمام لعبهم كالأطفال. كاشان، هرطمان، الله ينصر السلطان.

وحثَّ خطاه ليستقبل الغروب على شاطيء النهر على الأقل.

كانت المدينة تتهيأ لليلها الأسود والزحلاوي. مقاصير بيع السمك، والمقاهي المكشوفة، والحانات المتناثرة كمصائد للغواية والضلالة. وهناك سيل لا ينقطع ممن يجرجرون اقدامهم بلا هدف، أشلاء نهار يوشك أن ينقضي دون أن يخلف حسرة. وجميعهم، على ما يظن السيد معروف، فارغو القلوب ويتصيَّدون ما يشغل بالهم، ويلتهم ساعات فراغهم الفارغة. العيون تتلصص. الألسنة مستعدة للقيل والقال. زهد فيهم، وأسرع يحث خطاه لكيلا يفوِّت موعده مع الغروب، تسابيحه ومعراجه إلى مدن وسماوات لا يحلمون بها. من بين هذا الخلق، في الشارع المسترخي بعد حرٍّ ظهيرة لا يرحم، جمهرة غفيرة، بالتأكيد، من أولئك الذين جاءوا يتهوون من رائحة المكاتب، وغبار الإضبارات. ومنهم من يزفر مثله، رائحة «كاربون» ترسب في الأنف والحنجرة والأجفان. بعد قليل سيغسلونه بشيء من الخمرة... ليته، ليته يفعل مثلهم أحياناً، ولكن المانع معدة مقروحة تتلوى حتى من زعيق السيارات، وتتقيأ من البهارات، ولا تستريح إلاّ للَّبن المطروق. واستنشق السيد معروف نفساً طويلاً عميقاً، وزفر حثالة كاربون. وأحس أنه يدخل في بستان الغروب. فإن للغروب رائحة ندية تتجاوب مع رائحة غامضة أخرى كامنة في أغوار النفس تسري رعشة لذيذة خفيفة في

الظهر وخلف الأذنين كصدى لموسيقى غير مفهومة، ولكنها مهدئة. ورأى الشمس ملثمة حتى العينين بخمار داكن من خضرة النخيل في الجانب الآخر من النهر فردد: «قل للمليحةِ في الخمار الأسوَدِ ماذا فعلتِ براهبٍ متعبِّدِ؟!» حيّ على الغروب. أستغفر الله. وابتسمت الأغوار المتلبدة اللزجة من نهار كامل قضاه خلف آلة الطابعة. لا. مليحتي ذات خمار داكن الخضرة تغمز لي من وراء الطوفة، هناك.. أهلاً، يا حبيبتي، أهلاً. الأشياء كلها تستحم في الهيولى الوردية التي تغدقينها على البشر، منذ بدء الخليقة، حيث لا شيء غير الشروق والغروب، ووجه ربك ذي الجلال والاحسان. حياك الله وبياك، وجعل الجانب الغربي مثواك. ولوَّح بذراعه اليمنى للشمس خلسة، وكأنه يقول لها قبل أن تغادر المدينة: أنا هنا، منذ بدء الخليقة أيضاً، منذ أن جعل الله في الأرض خليفة، قبل أن يوسوس له الشيطان ليفسد فيها ويسفك الدماء. خلقت من عجل، لتسجد لي الملائكة كلهم أجمعون. وتحسّر السيد معروف لأن ذراعه ليست طويلة بعرض النهر لتصل إلى الشمس، ليمسح عنها تلك البقع السود الصغيرة، حبات العرق عن جبين الشمس الدائرة منذ الأزل، وليعبر بهذه الالتفاتة المتواضعة، عن عميق حبه لها بغروبها المرئي، وشروقها المحجوب عنه بألف جدار. وحانت منه التفاتة، في لحظة التجلي والمناجاة هذه، فوقع بصره على وجه مستدير، مثل قرص الشمس، حتى لتوهَّم أن الشمس عرفت ما دار في خلده، وجاءت إليه من الجانب الآخر، ضاربة بعادتها الأزلية عرض الحائط، لتدنو منه، وتستجيب لقصر يده، وتدعه يمسح حبات العرق عن جبينها الفتان. إلاّ أن لهذا الوجه عينين بشريتين واسعتين لامعتين، وشفتين قرمزيتين خيِّل للسيد معروف أنه لمح ابتسامة عذبة حنوناً

ترف عليهما في شيء من الحرارة والحنان والفرحة باللقيا ، بهذا القرب الشبيه بالعناق ، وبهذا الوضوح الشبيه بالعري ، وبهذا التيبّس الشبيه بالغيبوبة . أو لعل الشفتين تحركتا تبادرانه بتحية ، بتلك اللغة السماوية العريقة ، قبل أن تخلق بابل ، ويبلبل اللسان . فكانت مفهومة له وحده ، موجهة إليه دون غيره ، وكان هذا الوجه ، في الحقيقة ، وجه امرأة بدا أليفاً جداً للسيد معروف ، مثل وجه قريب ضائع كان السيد معروف يبحث عنه ، طوال حياته ، والآن في مهرجان الغروب الاسطوري ، في ضربة حظ موفقة ، وجده أمامه مغموراً بالالق الحبيب إلى قلبه ، ألق الشمس الغاربة . وهمَّ السيد معروف أن يتحرك من مكانه ، أن يقترب منه . إلاّ أنه خجل ونكص. فماذا سيقول له؟ بماذا يناديه؟ من أين يبدأ بالحديث معه؟ ظل السيد معروف جامداً كالمسحور ، دقائق لا يعرف لها عداً ، يتشرب تلك الأسارير الحلوة الصافية البسامة الحنون ، ليتركها تنغرس في تلافيف ذاكرته ، وتتشبع بها روحه وعقله وخياله . وتابع الناس يمرون به كالامواج وكلفحات ريح شديدة تبعد الوجه الحبيب عنه ، وتلفه في زحام الناس . أراد أن يأتي بحركة ، باستغاثة ، إمسكوه! هذا الذي كنت أبحث عنه! ولكن أوصاله تجمدت ، وحلقه جف . وخُيِّل إليه أن عينيه أيضاً غابتا ، وأخذتا تفقدان الأبصار . فتحهما . كانت كتل الناس ، كالحجارة الصلدة ، تحجب عنه أفق بصره . حوّله صوب النهر . كانت الشمس قد اختفت ، وجثم غول المساء على صدر النهر بلونه الرصاصي تاركاً الطريق مفتوحاً لجحافل الليل .

وجد السيد معروف نفسه يسير مع سيل الناس مستقلاً عنهم بحرز ثمين ، وكأن الغروب القاه إليه في طريق رحلته الدائمة . وكان يحس

بنشوة غامضة ، وحذر عجيب ، وهو يخترق سيل الناس ، متفرداً عنهم بسر الغروب الراحل ، تاركاً رجليه تدبان إلى ما لا نهاية ، في ذلك الشارع الطويل المتعرج ، متوغلاً فيه إلى نقطة ، ربما لم يتوغل فيها طوال حياته الماضية . كان يريد أن يطيل لحظة النشوة الساهمة هذه ، وكأنه في حلم رآه بين اليقظة والمنام ، ولا يريد أن يفتح عينيه ، ولا يريد أن يفكر أن ذلك ما هو إلاّ حلم عابر ، حتى لا يغيب عنه الطَّيف الحبيب الذي مرَّ به خطفاً ، في غفلة من الزمن ، بين زحام الناس ، وقفزات الخيال الشريد . أو كان مثل طفل وقعت في يديه فراشة ملونة ، فوضعها في قدح زجاجي ، وهو يخاف أن تفلت ، ويخشى أيضاً أن يضع كفه على عنق القدح مخافة أن تختنق الفراشة وتموت . فـتركهـا تضطرب في القـدح إلى أن تهتـدي إلى الفتحة ، وتهرب . كان يريد أن يبقى الطيف العابر في أُفق خياله أطول وقت ممكن ، دون أن يفكر ، تاركاً صورة الطيف تنطبع عميقاً في ذهنه . هدية الغروب . إبتسامة الغروب . كانت تطل عليه من علٍ . لا تفكر كثيراً ، يا سيد معروف . تشرَّب بها ولا تفكر . تأملها في خيالك ، ولا تفكر . أو فكر في موضوع آخر . أي موضوع؟ موضوع آخر . لا بأس . كتابنا وكتابكم . الكتاب رقم واحد . في حياتك كلها ، يا سيد معروف . هل رأيت مثل هذه الابتسامة في حياتك كلها؟ إبتسامة الغروب ، يا سيد معروف . إبتسامة حلوة وعينان . . . عينان حدوبتان . . فعلاً ، حدوبتان . . فيهما من الرقة ما جعلك تذوب في مكانك . عجيب . كتابنا كتابكم . . موضوع آخر . . فكر في موضوع آخر ، يا سيد معروف . موضوع آخر . . أين وضع هذا الموضوع؟ فكر في موضوع آخر . الموضوع : تحويل تفكير . إستنـاداً إلى كتـابـكم المرقم . كم من الأشخـاص والـدوائر والأمم

والشعوب استندت إليه، وما زال قائماً مثل طاق كسرى. جبل التوباد حياك الحيا.. هل كانت تلك الإبتسامة لي؟ معقولة؟ لا، غير معقول. معقول، غير معقول. اسكت، يا سيد معروف. حوِّل تفكيرك إلى موضوع آخر. الموضوع: تحويل تفكير. إستناداً.. لا تستند إلى شيء.. المصادفة أم المفاجآت. أُختها، عمتها.. ضرتها. ربما كانت تلك الإبتسامة لي حقاً. إبتسامة حلوة، وعينان... حدوبتان. لست أعور، ولا أحول، ولا أعرج. رقبتي طويلة فقط. هل من المعقول أنها رأت رقبتي؟ انقدح شرر من التقاء عينين بعينين. كفى، لا تفكر. الموضوع: تحويل تفكير. كتابكم المرقم، وكتابنا المرقم. بلا رقم. صفر. صفر على الشمال. وأتى السيد معروف حركة مخبولة، وتفتت التراب الهش تحت قدميه. وجد نفسه يمشي على حافة الرصيف المنسرح إلى جرف النهر. وتحت المنحدر نار مشتعلة «تُسقَف» عليها ثلاث سمكات. صياد السمك اصطاد لك سمكة.. حورية، كانت في انتظاره على الشاطيء، ساعة في ألَق الغروب الربيعي.. أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكاً.. مبتسماً.. ابتسامة حلوة، وعينان حدوبتان. سيد معروف، لا تفكر. حوِّل تفكيرك. الموضوع: تحويل تفكير.. استناداً..

- سيد معروف، مرحبا؟

صوت رجالي. بوهت السيد معروف. سقط من السماء السابعة. وجه آخر: إبتسامة أخرى تطل عليه من باطن الليل.

تماماً، كما أراك في ذاكراتي: سارح الفكر، وكأنك تلاحق الغيوم. عرفه. كلما قابله، على فترات متباعدة، جابهه بحقيقة مزعجة، وكأنما يريد له أن لا ينساه. لم يرد أن يجيبه، فإن الدخول في نقاش مع السيد موفق، وفي ليلة ظلماء كهذه يزرع حوله

الأشباح. ولكن أراد أن يجرب لسانه. فقد تصور أنه لم يستخدمه منذ دهر، وخشي أن يكون قد التصق بحلقه إلى الأبد، خرج صوته جافاً جارحاً.

- لا فكر ولا ملاحقة في هذه السماء الصافية المنجمة.
- ما هو إذاً؟
- «شيء خصصت به من بينهم وحدي».
- هذا هو التجلي إذاً.
- لا تحسبه بحسابك الخاص.
- نوع من التفكير الرامي.
- لا، أبداً. لا فكر، ولا تفكير.
- لماذا تنكر التفكير، يا عزيزي معروف؟
- الأشياء الذاتية لا تسمى تفكيراً. شيء تفرزه النفس كالدموع كالضحك والبكاء، كوجع المعدة.
- كل شيء نتيجة تفكير.

إنزعج السيد معروف، فقال في فلته لسان:

- لا، لا أنا أقبل بهذا التفكير ولا أُمي.

وارتدت هذه النكتة الباردة إلى نفسه كالنصل فارتبك. أُمه هنا أيضاً! آسف، يا سيد موفق، آسف. تداعيات سابقة. وخلال ذلك كان موفق يحاصره:

- صمتك تفكير، إنكارك تفكير.
- سيد موفق، لا تضعني في رحى تفكيرك. أنا ضد التفكير، إنسان يعيش بلا تفكير.
- ولكنك في الماضي، كنت تريد أن تعرف كيف يعمل العقل البشري.

ـ لم تعد لي هذه الرغبة، ولا أية رغبة أخرى غيرها.
ـ لماذا، يا سيد معروف؟
ـ لأن الإنسان إذا كان... كان معجوناً بآلام كثيرة، فلماذا يضيف إليها وجع الرأس من جراء تفكير لا يجدي؟
ـ التفكير يضعك في موضعك الصحيح كانسان.
ـ عندما يتجاوز الإنسان الأربعين يخاف من التفكير، ويشتغل بالاحلام.
ـ الأحلام تفكير فوق مستوى الواقع.. ولكنها مفيدة بالقدر الذي لا يعرفه إلاّ القلائل من المفكرين. التفكير يحيط بك من كل الجوانب.
ـ وما فائدة التفكير؟ قل لي من فضلك.
ـ للوصول إلى ما هو أحسن.
ـ لم أعد أحفل بما هو أحسن.. أو لا أرى أُفقاً لما هو أحسن..
ـ لا، سيد معروف. أنت متشائم
ـ كلمة تقال.
ـ قل، يا سيد معروف، وأنت المتبحِّر في اللغة: ما معنى كلمة إبليس؟
ـ لا أدري. إبليس هو إبليس وكفى.
ـ لها معنى بليغ جداً. سمّى إبليس، لأن الله أبلسه. أي أيأسه من الخير...

أسقط في يد السيد معروف. كان يرى أسناناً لامعة في الظلام. هل يضحك موفق منه؟

ـ لا أغير من الأمر شيئاً. إذا أضفت إلى أبالسة الله واحداً. فعددهم في الدنيا أكثر من اللازم.

- هذا حكم، هذا تفكير. أنت مفكر، ولكنك تخاف من البوح بتفكيرك.

- نفس النغمة القديمة. أما تزال على تفكيرك القديم، يا سيد موفق؟

- نعم، أنا على نفس عقيدتي.

- لا بد أن لك اطفالاً الآن.

جازف السيد معروف في أن يستفسر رغم ما في ذلك من إثارة لماضٍ قديم، يوجعه أن يسترجعه.

- أربعة. وهل يغير الإنسان إيمانه، إذا رزق بأطفال؟

نفس الحصار القديم سيضربه موفق عليه. وكأن شيئاً لم يحدث. وجد السيد معروف نفسه يقول:

- الله يحفظهم لك - ثم أراد التخلص بسرعة من لقاء محرج فسأل - كم الساعة الآن؟

- أما زلت مضرباً عن الساعة؟

- الشمس تحدد لي المواقيت.

ولم يقل له اضطررت إلى إدخال الساعة في البيت من أجل أُمي. لن يذكر أُمه مرة أخرى، أمام موفق.

- وإذا كانت الدنيا غائمة؟

- أرى الشمس من خلال الغيوم.

- أنت تفكر في الشمس إذاً.

- في غروبها.

- ولماذا في غروبها. أليس ذلك دليلاً آخر على تشاؤمك.

- لأنني لا أرى شروقها. وهذه قضية خصوصية بحت.

- أما أنا فأراها كل فجر.

ـ ربما لأنك الآن تسكن حياً يرى الشمس. قلت لك: هذه مسألة خصوصية بحت.

ـ لا بل أراها في تفكيري، تملأ الآفاق.

ـ إذاً أنت أنقصت أبالسة الله واحداً، وأنا زدتهم واحداً.. تعادل.

ـ لا، سيد معروف. لا تعادل بين الخير والشر.. لا بد أن تغير رأيك.

ـ نعم الموضوع تحويل تفكير إذاً؟

أفلتت هذه الجملة من لسان السيد معروف، فأمسك بها موفق.

ـ أحسنت، لا بد أن تنحاز إلى جانب الخير..

ـ أنا مع الخير قلبياً، على أن لا يكلفني أكثر من طاقتي..

ـ الكادح لا يفقد إلاّ أغلاله.

ـ كلام يقال، يا سيد موفق. أرجو لك السلامة.

ـ ولك أيضاً يا سيد معروف.

ـ في الحذر السلامة، سيد موفق.

وتصافحا في الظلام. إبتعد السيد معروف عنه بسرعة. لقاء مع موفق غير موفق. بدا وكأن دهراً يفصله الآن عن سلسلة أفكاره السابقة. أفكار؟ لا، أحلام. لا، مجرد هذيان. الموضوع تحويل تفكير. نسبة لا يعرفها إلاّ المفكرون. خزعبلات. إسكت. إنس التفكير. سأصرخ ملء فمي: إنس التفكير. الموضوع تحويل تفكير. ما هذه المشكلة الجديدة، يا سيد معروف؟ كأن المشاكل لا تكفيك، يا سيد معروف. وجه يطل عليك ملفَّعاً بالغروب، مبتسماً ابتسامة غامضة؟ غامضة؟ لا، واضحة. فيها فكرة. فكرة السيد موفق. إبتسامة حلوة، وعينان حدوبتان. إسكت. إنس الموضوع. لعنة

على أبي التفكير، الحقير بن الحقير.

بدأت أوكار الليل تقذف ما في أحشائها. الأصوات جارحة. والروائح حادة. وأنفاس النهر مضمَّخة بزفر السمك. والشمس تدب هناك، وراء سجف الليل المتكاثفة، كل شيء تجاوز حده ينقلب إلى ضده. أم كيف كان يقول موفق في الزمان الأول؟ الكيفية تنقلب إلى نوعية. لا. الكمية تنقلب إلى نوعية. كم. كيف. نوع. جوع. لا أدري. المهم انقلاب... مفاجيء.. ضروري.. خطير.. إذا برز لك وجه حلو فجأة.. ابتسم لك في حنايا الطريق. التقت عيناه بعينيك. داعب خيالك بابتسامة. أين كان في الماضي؟ كمية تحولت إلى نوعية. أحلام تحولت إلى واقع.. جوع تحول إلى مغص في المعدة. أوف. لعنة الله عليك يا معدتي. لولاك لخرجت نشوان من وكر، مترعاً بالخمر وقَدْر هائل من الأوهام لا يعرفه إلاَّ كبار المجانين. إصبري، يا معدة، أرجوك. ليس لي في الحياة غيرك، وغير أم عجوز توشك على العمى التام، وأُختين تجاوزتا سن الزواج المسموح به في تقاليد لم أخط أنا حرفاً منها، حتى في عز شبابي، أيام كنت أُحرر الكتب الرسمية محاولاً أن أشذبها من رواسب عثمانية وأنفخ فيها نفثة من روح. أوه، كم يتعذب الذين يحبون أوطانهم في تفاصيل زائدة عن اللزوم! كأن الغروب زائد عن اللزوم. الإبتسامة الحلوة زائدة عن اللزوم. رائحة الليل الوغرة زائدة عن اللزوم. الصراصير زائدة عن اللزوم. ودفع باب بيته ودخل.

مصباح شاحب في الطرمة. للنوم والكسل رائحة عنكبوتية. لزوجة طعام ثقيل، تقلصت له المعدة.

ـ مرهونة، أهذا معروف جاء؟

ـ لأُمه حاسة مرهفة تعويضاً لبصر ذاهب.

ـ نعم ، أنا ، يوم .

إستدار إلى اليسار فرآها على سريرها مكورة محدودبة ، باسطة الذراعين إلى الرجلين المدورتين ، ملفوفة الرأس والرقبة بفوطة ربما تحسب لونها الأبيض رمادياً ، فقدت الآن نعمة الإحساس بالألوان . سيّان عندها الليل والنهار ، الصبح والمساء . ومن أجل ذلك أدخل الساعة إلى البيت .

ـ تأخرت! جعلتني في الوسواس .

جلس على حافة سريرها :

ـ لست طفلاً ، يا أُمي .

ـ خفت عليك . طار النوم من عيني . قلت لنفسي : حصل له شيء .

ـ لم يحصل ، ولن يحصل .

وعضّ على شفتيه لأنه كذب . وقسا بعضته لأنه يعرف أن أمه لن تراه يفعل ذلك . أين ذهبت ، إذن ، تلك الإبتسامة الحلوة ، والعينان الحدوبتان؟ وهل من المعقول أنَّ أُمه تفهم لحظة التجلي تلك؟ ستقول إن ابنها الأوحد تخبّل . أو أنه يركض وراء سراب ، ليتركهن وحدهن .

ـ كنت في القهوة؟

ـ كنت أتمشى على شاطيء النهر .

ـ في الليل؟

ـ يحلو التمشي .

تنهدت الأم عن عجز وخيبة . وغطست في بئر صمتها . منذ دهر لم تغادر دارها . ربما نسيت أن في الدنيا نهاراً ، وغروباً ، وابتسامة حلوة تسبح في ألق الغروب . وأحس بأحزانها الصامتة القنوط . مسّ يدها . كانت حارة مرطاء . أوه ، يا أُمي ، ليتني

استطعت أن أزيح عن عينيك الماء الأسود لتري قسمات الأشياء. ولكن صدق من قال: الأطفال وكبار السن يخشون الموت أكثر من الآخرين.

- لم تلتق بأحد؟
- لم ألتق بأحد، وبمن ألتقي؟

وأفجعته كذبته الثانية، كأنما تخلى، في لحظة من حب الذات، عن شيء ليس من السهل التخلي عنه. من الكفر أن يقول لها إنه التقى بموفق. فإن هذا الاسم مرتبط بماضٍ ما يزال معلّقاً بين الخطأ والصواب، وإثارته تثير شجناً في القلوب. ستصاب بنوبة قلبية. إذا ذكر اسمه لها، سيرتفع ضغط دمها المرتفع أصلاً. وتعال، يا معروف، خذها للطبيب. والصمت أيضاً مقلق ولئيم. والحسرة تضرم ناراً في داخل القلب. نهض السيد معروف من سرير أُمه.

- مرهونة، صبي لي شيئاً أسِدُّ به معدتي.
- أما زالت هائجة عليك؟

وكذب كذبة ذكّرته بوجع معدته المزمن، والوجع الذي يبدو له أحياناً وكأنما ولد معه، وكان ألصق به من جلده.

في الطارمة همس لمرهونة حين جاءت له بصينية الزاد:

- محبوبة نائمة؟
- لاء عند الجيران.
- في مثل هذا الوقت؟ تعليلة رمضان؟
- ذاهبة لاناديها.
- لا، لا تذهبي.

لا يريد أن يراها. موفق يملأ سماء ذهنه. نافورة حنق تنبع من

مكان خفي في أعماقه، جعلت منظر الطعام كريهاً عليه. تقلبت منه أحشاؤه، وتقلص حلقومه.

- أوف! هل تتصورين أن معدتي تقبل كل هذا الدهن؟

- أين هو الدهن؟

- كل هذا الطوفان من الدهن لا ترينه؟ أعطني قطعة جبن أتبلغ بها. أطرقي لي طاسة لبن. لا أريد أن أقضي الليل ساهراً مع معدة تئن.

- حرام عليّ إذا كنت وضعت ملعقة دهن ولكن ماذا أقول للقصابين؟ جاء صوت هرم من الغرفة:

- مرهونة، ما هذه المناكدة؟

- لا شيء، يوم. نامي نومة العافية.

(لا تدعيني آخذك للطبيب)

جاءت محبوبة، وهو يؤدم الخبز باللبن المطروق. نكس رأسه. لا يريد أن يراها اليوم. سيتطابق الوجهان في خياله. من الممكن أن يكون لها الآن أربعة أطفال، يسمونه خالي معروف. لا يريد أن ينبش تاريخاً لا يحسن أن ينبش، ولا يجوز أن ينبش. ليدعه راقداً في ذاكرة كل إنسان منهم، على طريقته الخاصة. ميتاً أو حياً، مشوهاً أو سليماً. ودعها تنفس عن نفسها بزيارات مطولة إلى بيت الجيران. للتلفزيون سحر لمن اختزلت حياته، وحصرت بين أربعة جدران. آخر موجة للترفيه عن الاسرى. سقط اللبن المملح في معدته بارداً منعشاً، لذيذ المذاق. وامتزج بعصاراتها المتقلبة الأطوار المنحرفة أبداً. مغص محتمل، خفيف على المعدة ليس مثل كذباته اليوم. والرأس يضج بالصور. ومرهونة جالسة في ركن تنظر إليه بعينين ناعستين، تتوسلان إليه أن ينهض. لا بد أنَّ عمل

اليوم ، أو كسل اليوم قـد أتعبهـا . لـلم نفسه سريعـاً ، ودخـل إلى حجرته . وكان هو الآخر يحس بتعب لذيذ ، بثقل في المفاصل يغري بالإسترخاء . كأنما عاد من سفر بعيد .. من حج .. حج مبرور ، وسعي مشكور ، وتجارة لا تبور . ولاح له الوجه المدور من وراء سبعة بحور ، ابتسامة حلوة ، وعينان حدوبتان تستقبله على أحد الشواطيء بعد عودته من رحلة العمل اليومي المضنية مثقل الجفون بغبار الكاربون غير المنظور . كيف رأته ، وهي تطل عليه من عليـائها شمساً تؤوب إلى خـدرهـا؟ نتورتها من أذرعـات ، وأهلها بيثرب ، أدنى دارها نظر عال . ولأول مرة ، يرى في الليل ، وجهه في مرآته العتيقة المحكوكة الحوافي ، وصار يردد مع نفسه لست أعور ، ولا أحول ، ولا أقرع ، ولا أحلج ، ولا أشدق ، ولا أشرم ، ولا أفطس ، ولا فاسد الأسنان . ودع الرقبة جانباً . خلع القميص فلاحت طويلة مثل رقبة الزرافة . قبحها الله من رقبة . والرأس في آخرها يقبع صغيراً ، والوجه قاسي التقاطيع ، كدر البشرة مجدب ، محروق من شواظ شمس تجفف الخضرة وتستنزف النضارة بسرعة . عاف المرآة ، وارتمى على السرير . لم تره بهذا الشكل ، وإلاَّ للاح الاشمئزاز في عينيهـا ، ولتطـيرت مثـل تطـير ابن الرومي من جـاره الأحدب . كان وجهها فياضاً بالحنان ، وكأنما تعرفه منذ زمان . ربما رأته غير مرة ، في طرق الحياة المزدحمة . لم يكن في عينيها ذهول المفـاجـأة ، ولا سهوم الاستغراب . كـأنمـا تركتـه لشأن من شؤونها ، وعادت إليه لتصحبه وتأخذه إلى خدرها الغروبي وهو أيضاً لم يفاجأ . لم تعتره رعدة ، و تعرق خجلاً واستحياءً . لكنه سحر من الالفة والقرب . من دفقة الحنان الذي كان يفيض من وجهها ، من حلاوة الشهد التي كانت تلمع في ابتسامة شفتيها . كاد يلحق بها .

يناديها . أنا أعرفها ، يا ناس . أعرفها منذ زمان ، نصيبي الضائع رأيته في الزحام . ربما كان يلاحقني ، يتلصص عليَّ ، يسير ورائي كظلي ، طوال تلك المدة ، عشر ، عشرين سنة كان يتعقب خطاي ، ويشهد الأربعين وقد بلغتها ، والخمسين ، وأخاف الدنو منها . . أوه ، الله أكبر . شاب بالخمسين . كيف مرت تلك اللحظة خطفاً؟ لماذا لم أرد الابتسامة بابتسامة ، وأسناني لم يتآكلها النيكوتين؟ لماذا لم أُفهمها شيئاً ، بغمزة ، باشارة ، بتمتمة شفاه؟ لماذا لم أتكلم معها؟ أهلاً ، وسهلاً ، تشرفنا . أنا هنا ، في الانتظار ، كل غروب شمس . ربما أنت تحبين الغروب مثلي؟ أُنظري إليه : سحابة وردية طائرة . هل تحبين أن تحلقي مثلي ، فوق الأرضين؟ على أشعة الغروب ، نطوي الآفاق ، ونجتاز الوديان والبحار ، ونتسلق الجبال؟ لا ؟ على كل حال ، أهلاً ، وسهلاً . خادمك له نزوات ، منذ الصغر صاحب شطحات . لا ، لست متزوجاً . قسمة ونصيب . على كل حال ، التعارف يكفي . نلتقي ساعة الغروب . أشم فيك رائحة الغروب . رائحة البنفسج . ما هي رائحة البنفسج؟ لا تدخل نفسك في أمور لا تعرفها ، يا سيد معروف . سر على ما كنت تسير عليه دائماً . لا تعرف ما لا تعرفه ، ولا تتدخل فيما لا يجوز التدخل فيه . المهم أن تتعرف عليها ، وتتعرف عليك . نعم . قسمة ونصيب . أم عجوز ، وأُختان عانستان . لا . قسمة ونصيب . سنحت الفرصة للصغرى ، فمنعتها أُمي . ركبت رأسها . وقالت : لا ! ومرهونة تبقى عازبة؟ لم تقل ومعروف يبقى عازباً . بل قالت واختك الكبيرة تبقى عازبة؟ ربما كانت تتنبأ بأن ألقاك؟ تقرأ في اللوح المحفوظ؟ على كل حال ، أهلاً وسهلاً . ليغمرنا الغروب باشعته الحنون ، ويباركنا ، ويبارك لقاءنا . دقت الساعة في الطارمة دقتين . والنوم بعيد بُعْدَ الغروب عني

الآن . زن . . زن . . لا تفكر ، يـا سيـد معروف . أغلـق دكـان تفكيرك . . أو حوّله إلى شيء يجلب النوم إلى جفنيك . لا تفكر . الموضوع : تحويل تفكير . . كتابنا ، وكتابكم . وشوشة الساعة في الأذن . كم هي ثقيلة ومزعجة هذه الساعة . إشتريتها من أجل أُمي ، التي لم تعد ترى الغروب والشروق . تسمع دقاتها المخربشة ، فتقيس عليها ما تبقى لها من ساعات . كانت دقاتها تغيظني ، وتوقظني من غفوة عسلية . . دائماً تأتي غير مدعوة ، في وقت غير مناسب . والليلة سأظل أسمع دقاتها . . أنتظرها انتظاراً حتى الصباح . أُماه ، هل أنتِ مستيقظة مثلي؟ هل سمعت دقتيها الاثنتين؟ الليلة أسمعها معك ، وكأنها دقات قلبك المخرخش ، أسمع نبض حياتك الحزينة المترملة الحافلة بالمآسي والكدح . رغيفا الخبز لم أنسهما . ربما نسيتهما أنت ، من بين أشياء كثيرة يزدحم بها طريق عمرك . ولكنني لم أنسهما . ذكريات الطفولة كالنقش في الحجر . إضطرار ، تيتم . وكان لـك ثـلاثـة أفواه يجـب أن تلقميهـا بشيء مـا ، بخبز مسروق . أو مشترى بالكدح والعرق . رغيف خبز محمَّص ، مبطط لذيذ ، مدور مثل وجه الحبيبة التي مرت بي اليوم ، في غفلة من الزمن ، حمراء ، قوراء ، بسامـة الثغر ، لميـاء . مـاذا يقول مميز التحرير عن هـذه الكلمات؟ كتابنا وكتابكم . . إستناداً إلى ما مرَّ بي اليوم ، سأظل مسهداً حتى الصباح . سيشطب الأستاذ عبد الرحيم على « مسهد » ويكتب « ساهر » . أو ربما « أرق » . أرق على أرق . مصيبة وراء مصيبة . والمصيبة أنني لم أر قوامها . أظنها طويلة مثلي ، غصن بان ، ولكنها ليست نضوا مثلي . نضاً ينضو نضواً . عامرة الصدر بالإيمان أو بغيره . . ربحلة أسمر مقبلها ، سبحلة أبيض مجرَّدها . ما رأيك يا أُستاذ عبد الرحيم ، يا عاذل العاشقين دع فئة أضلَّها الله كيف

ترشدها؟ ليس يحييك الملام في همم ، أقربها منك أبعدها عنك . . آه ، يا مميزي! بئس الليالي سهرت من طربي شوقاً إلى من يبيت يرقدها ، قرير العين ، لا يثقل على فؤاده هم . إسكت يا سيد معروف ، إسكت . لا تتكلم في النوم . عادة سيئة تجعل سريرك فارغاً حتى بقية العمر . دقت الساعة ثلاث دقات . دزن . . دزن . . دزن! سهران بين تفكير وتحويله . الموضوع تحويل تفكير . كتابنا وكتابكم سأظل أُكرِّرها حتى أنام . كتابنا وكتابكم ، كتابنا وكتابكم ، كتابنا وكتابكم . أُريد أن أنام . . أنام . . أنام . . في الحمام . خفيف . طائر . يا ريتني طير ، وأطير حوالَيْك . أين أنتِ يا صاحبة الوجه البسام والعينين الحدوبتين؟ بئس الليالي . . من يدري؟ ربما هي أيضاً تسهر عن طرب . والطرب من معاني الاضداد ، يا أُستاذ عبد الرحيم . الإهتزاز من فرح أو ترح . . المهم الإهتزاز في الطرب . الروح تخف فتهتز . لُمْ الليالي التي أخنت على جدتي ، برقة الحال ، واعذرني ولا تلم . . لا ملام بعد الساعة الثالثة ليلاً ، والغروب على الاطلسي يزحف زحفاً لا يقهر مخلفاً طنجه وراءه ، وجزر الكناري . البحر من ورائكم والعدو أمامكم ، وليس لكم ، والله ، إلاّ السهر حتى الصباح . . أنتم في هذا الليل البهيم أضيع من الايتام في مأدبة اللئام . لا ينجيكم منه معقل وعلٍ ، ولا مفازة سبع ، ولا قعر بحر ، ولا رأس طود . . ولا أية حماية أخرى من تلك التي عدَّدها السيد الجاحظ . والسكوت أفضل في مثل هذه الحال ، لا لأنه من ذهب ، بل لأنه يقطع دابر التفكير ، ويسلم إلى النوم العسير حتى الصباح المنير ، ولله ، بعد ذلك التدبير أو حسن التدبير . . دزن ، دزن ، دزن . سعلت أُمي بعدها معلنة عن قلقها في الساعة الثالثة ليلاً ، وفي الساعة الثامنة صباحاً سيكون السيد معروف مدحوساً في أحد الباصات

العامة. دحس، يدحس، فهو مدحوس. الداحس والغبراء. المهم أن تكف عن هذا التفكير، يا سيد معروف. الموضوع.. كتابنا وكتابكم. لو أعرف عنوانها لأرسلت لها كتاباً. الموضوع: طلب يد. إستناداً إلى تلك الإبتسامة الحلوة، والعينين الحدوبتين يتشرف المدعو معروف الدواليبي، الموظف في قلم التحرير، والمنسب حالياً للاشتغال ككاتب طابعة، والمرقى مستقبلاً إلى أن يصبح مجنوناً.. والله سأصير مجنوناً إذا لم تغمض عيني.. بس، انتهى. إرفع الكتاب من الآلة الكاتبة ومزِّقه. أجِّل مشاريعك لليوم التالي. ونَمْ ولا تُشغل نفسك بتفكير وتحويل تفكير.. فإن ذلك شيء طارىء في حياتك أثارته ابتسامة حلوة وعينان حدوبتان. أوه. عدنا إلى الإبتسامة الحلوة والعينين الحدوبتين.. أوه، كفى. ما خلافك السابق مع السيد موفق إلاّ على أنه كان يجرك إلى التفكير. لا تفكير ولا بعير، ولا موظف ولا مدير، حتى الصباح على أقل تقدير.. فاه.. لطيف، بدأت أتثاءب. تثاءب عمر إذ تثاءب خالد.. كفى، فيما بعد، يا سيد أبا العلاء.. سنتحقق من حصول العدوى. سنتفاهم. الموضوع: حسن تفاهم. أين حُسن التفاهم هذا.. مع النوم. كفى. يبس حلقي. لو أشرب جرعة ماء. وبعدها سأنام. تعبان، وجسمي ثقيل، ورأسي مثل غرفة الالآت الطابعة.. سأغطي رأسي باللحاف، لعل السيد المحترم ثاني اوكسيد الكربون يهدى سنة من النوم. فاه، فاه.. تثاءب عمر إذ تثاءب. بدأت أرى الصور.. هذا شيء لطيف.. رؤية الصور تدخلك إلى دنيا الاحلام. صور.. صور.. هل أنا أحلم؟

دزن، دزن.. دزن.

سمعها السيد معروف ما بين السبع مرات والثماني. تضعضع السرير من هبته القوية. الشغل. الدائرة. قدح الشاي لأبلَّ الريق. وصعد سلم الدائرة مغمض العينين تقريباً، يكاد يصطدم بالناس أو الجدران، موزعاً «صباح الخير» بكثرة للتحية والاعتذار وإزالة الكلفة، أو بعضها جاء طائشاً بلا عنوان، فلم يرد عليه أحد. صباح الخير في لهاث الدرجات الأخيرة، وكأنه صعد الملوية.

كان فراش المدير أمامه، في الصالة المربعة في الطابق الثاني. سلَّم عليه.

- صباح النور، أغاتي. اليوم متأخر، يا سيد معروف.
- نعم.. بضع دقائق.. أخذني نوم الصبح.
- غداً ينعقد اجتماع لجنة النشر لدى سيادة المدير، هل ستحضره، يا سيد معروف؟
- لا، أعفوني منها.. منذ زمان.. سنة.

وكأنه لا يعرف جبّاراً الأجلح هذا، فراش المدير الذي يعادل أربعة من كتاب الطابعة. ولكن إنا لله، وإنا إليه راجعون. دفع باب غرفته إلى اليسار.

- صباح الخير!

ردت بعض الاصوات، منها صوت عنيد:

- صباح التأخير.

كان الأربعة كاملي النصاب في الغرفة.

- أرجو المعذرة.. هذه باصاتنا، وأنتم تعرفونها...
- نحن نعرفك أكثر.
- شكراً على المعرفة.

هل يقول لهم كيف قضى ليلة نابغية؟ لا بأس. ليصمت. إنا لله

وإنا إليه راجعون . كما لا بأس بهذه النفاضة التي يتركونها كل صباح على منضدته ، لإغاظته وتسميم صباحه .

ـ نفاضتكم ، يا سادة .

ـ نرجو المعذرة نسيناها على مكتبك ، حين نقلناها إليه لننظف مكاتبنا .

الحجة نفسها . لا بأس . كذابون أشرون . والمهم أن لا يضحكوا ضحكتهم الجماعية الساخرة ، حين ينقلها إلى إحدى مناضدهم .

لم يضحكوا حين رفعها ، ولكن أصابعه ارتجفت من أرق البارحة . فضحكوا ، حين وضعها على المنضدة في ضيق ، وكأنما يتخلص من حشرة ميتة .

كوّم المحرر ضبة أوراق على منضدته قائلاً : « أنت تهتم بالخطوط » . وبدأت الآلات تدق ، مثل حوافر خيل مخبولة . ثلاث آلات جديدة ، ورابعة قديمة كان من الممكن أن تنقل للإستيداع . ولكن ما تزال فيها « روح » والروح من عند ربي . والسيد معروف صبور ، قنوع ، يخاف الله وأولي الأمر . أُعطِيت له ليتدرب عليها منذ أن نقل من محرر إلى كاتب طابعة ، بنفس الراتب الاسمي في الحقيقة ، فاحتفظ بها حريصاً عليها ، وكأنها آخر معقل يحتمي به ، في هذه الدائرة التي استقر مقامه فيها منذ عشرة أعوام .

قال المحرر السيد هاشم :

ـ هذا تعيين آخر . بدأ الجنس اللطيف يغزو دائرتنا .

قال السيد عبد اللطيف كاتب الطابعة المخضرم :

ـ أليست هذه نعمة . أن يصبح الإنسان على وجه صبوح ؟

وجه صبوح ، وجه صبوح ، إبتسامة حلوة ، وعينان حدوبتان .

- عبد اللطيف متفائل . ليست كل من لبست فستاناً ذات وجه صبوح .

ـ كل اللواتي يشتغلن في قسم المحاسبة ينطبق عليهن هذا الوصف. واحدة منهن تصلح لأن تكون زوجة للسيد معروف.
ـ فكرة صائبة.
ـ الزواج حق من حقوق السيد معروف. هذا مسوغ قانونياً.
ـ لها عيون واسعة على وجهٍ تضاريسي.
ـ وشعر كالليل البهيم، وجسم دسم وكأنها تسبح كل يوم بالحليب.
ـ ما رأيك يا سيد معروف؟

قال السيد معروف كلمته الحاسمة:

ـ لست محتاجاً.
ـ يعني، مكتف ذاتياً؟
ـ فسّر، كما يحلو لك التفسير.
ـ وإلى متى يعيش الإنسان على الإكتفاء الذاتي
ـ كل إنسان يعيش على ما في نفسه.

تعيش على ابتسامة حلوة، وعينين حدوبتين. لست أعور، ولا أحول، ولا أعرج، ولا مشقوق الشفتين، حتى ولا أخشم، مثل عبد الرحمن الداخل. صحيح أنا مثله خفيف العارضين نحيل، طويل الرقبة بشكل غير مقبول. أوه، اسكت، يا سيد معروف، اسكت. كتابنا وكتابكم. الموضوع تحويل تفكير.

جاءه من خارج مختبر تفكيره:

ـ تريد أن نحل عقدة السيد معروف. وهو يتمسك بها.

فردَّ عليهم من داخل مختبر التفكير: عقد الله لسانكم. ليس لكم غير هذا اللسان الفالت. كلمات فارغة. حياتكم مليئة بالكلمات الفارغة. هل تمتعتم بالغروب مرة واحدة في حياتكم؟ هل طار خيالكم مع الشمس تلاحقونها إلى آخر الدنيا؟ طنجة. سبتة. سرقسطة.

بـاجـة. ويبحرون فراراً من الليـل. البحر من ورائـكم، والعـدو أمـامـكم، وليس لـكم والله إلاّ الصـدق والصـبر، في شبـه جزيرة الأندلس، المليئة بالحور الحسان، من بنات اليونان، الرافلات بالدرّ والمرجان. الله ينصر السلطان. أسكت، حوِّل تفكيرك. كتابنا وكتابكم. الموضوع: تحويل تفكير. وبوغت السيد معروف بسقوط جمع قوي على منضدة اهتزت له أركان المنضدة. وعاد السيد معروف إلى الشرق الكئيب. كانت الضربة صادرة من مكتب المحرر السيد هاشم.

- خمسين مرة، مائة مرة، مليون مرة. قلت لك، يا سيد معروف لا تغير في الكتب الرسمية. هذا ممنوع قانونياً.

قال السيد معروف بصوت صادر من غور عميق:

- وهل وجدت تزويراً؟

- أسوأ. هذه تشكل جنحة.

- ولكن المثنى يرفع بالألف والنون، يا سيد هاشم.. شعبتان، والله العظيم، شعبتان..

- وليكن. لكن ليس من وظيفتك أن تصلِّح. أنت كاتب طابعة، ولستَ محرراً. كان عليك أن تستشيرني

- هناك أشياء نقوم بها دون حاجة إلى استشارة، مثل إماطة الأذى عن الطريق. لقد أمر الله بها.

ضحكوا. وانكب السيد معروف على طابعته، وكتابنا وكتابكم. يضحكون على أنفسهم، هؤلاء الفتية المناكيد. وأصدر السيد هاشم حكمه القانوني:

- ستجد نفسك يوماً تحت طائلة القانون.

غضب السيد معروف. رفع رأسه وأسبل يديه المتعبتين.

ـ لا تقرع رأسي بالقانون ، يا سيد هاشم . أنا أيضاً درست القانون .
ـ أين درسته؟ في أية حلقة؟
ـ في حلقة الدرويش الزمان . لا تسخر ، يا سيد هاشم . في كلية الحقوق ، مثلك . . عندما أنهيت الدراسة الثانوية ، دخلت كلية الحقوق ، في القسم النهاري ، وليس في القسم المسائي ، مثل حضرتك .
ـ وسقطت في الإمتحان ، ولم تكمل؟ إستعصت عليك المجلة ، الشريعة ، التاريخ الروماني ؟
ـ لا تعدد كل ذلك . أنا أعرف هذه المواضيع .
ـ ولماذا لم تكمل ، لماذا لم تتخرج محامياً ، حقوقياً؟
ـ نصيب ، حظ أهوج ، يا سيد هاشم . عندما دخلت قاعة الدراسة الضخمة ، لأول مرة ، رأيت نفسي ، وكأني في قاعة محكمة ، أو قاعة مسرح . . يوم الحشر . أرجو أن تفهم نفسية طالب منطوٍ تعوَّد أن ينزوي في صف من خمسة وثلاثين طالباً ، وإذا به يجد نفسه فجأة ، وسط أكثر من مائة طالب ، أصغرهم أكبر سناً منه .
ـ فخاف .
ـ نعم ، خفت مع الأسف . . أو بالأحرى ، خجلت .
ضحكوا دون خجل .
ـ كانت لحظة ضعف . . لحظة ضعف .
ـ جعلتك تترك الدراسة .
ـ ليست هي وحدها . هناك أسباب أخرى ، يا سيد هاشم ، لست مستعداً للخوض فيها .
وتنهد السيد معروف . الصمت مغيظ مثل ضحكة مكتومة . ألسنتهم الساكنة تتهيأ لغارة جديدة عليه . تحاشى النظر إلى وجوههم . وأنكب على طابعته . كتابنا وكتابكم . الموضوع تحويل

تفكير. إبتسامة حلوة، وعينان حدوبتان. والغروب غلالة ورديَّة تؤطر وجهها، ويملأ خياله. لحظة ضعف وانهيار. لست أعور ولا أحول ولا أعرج ولا أعضب ولا أجرب. وليس لي أية عاهة من العاهات المشوهة للوجه البشري. خيال. تفكير. كتابنا وكتابكم. الموضوع: تحويل تفكير. مَنْ يَكُ ذا بت فهذا بتي، مقيِّظ، مصيِّف، مشتِّي.

- إذاً، فالقضية لم تكن تتعلق بالذكاء.

- أية قضية؟

- قضية تركك لكلية الحقوق.

حَدَجهُ السيد معروف بنظرة حادة.

- تأكد، يا سيد هاشم. كنت الأول في صفّي. مستوى ذكائي، على العموم، أعلى من المتوسط.

- هل قسته؟

- بكل المقاييس.

- كم سنتيمتراً؟ كم حقة؟

- الذكاء كالخيال مادة أثيرية.

ضحكوا. ذلك أهون من صمتهم البارد المغيظ. وقال السيد عبد اللطيف:

- لهذا يقولون يلتقط الفكرة، وهي طائرة.

عاد السيد معروف يؤكد مفهومه الخاص للذكاء:

- الذكاء موجات غير مرئية تنفذ إلى الأعماق.

- إذاعة سرية تلتقط ما يجري في بال الناس.

- لا نعرف بماذا يفكر السيد معروف الآن. يلتقط أفكارنا براديو ذكائه.

- أحسنت. جهاز التقاط سري.
- يعني خطر..
- خطر، بالتأكيد. الأذكياء خطرون دائماً، يحوكون شيئاً مخيفاً في أدمغتهم.
- جهاز التقاطي موجه إلى داخل نفسي.
- وماذا ترى هناك؟؟
- إبتسامة حلوة، وعينين حدوبتين.
- يا ساتر، أستر!
- ألم أقل لكم إنه مكتفٍ ذاتياً؟

وظلوا يثرثرون خارج أفق خياله.. حيث كانت الإبتسامة الحلوة والعينان الحدوبتان تسبح في غمامة الغروب الوردية، بعيداً عن كتابكم المؤرخ، والموضوع تحويل تفكير. وحين دنا من مكتب السيد هاشم ليقدم له دفعة ثانية من الكتب المطبوعة، رأى في عينيْ المحرر ابتسامة من نوع آخر، غريبة جداً، ابتسامة مفترسة محت من خياله، للحظة واحدة، ابتسامة البارحة.

- هل من كتب أخرى، يا سيد هاشم؟ (همّ أن يقول هل من ابتسامة أخرى؟).
- الكتب لا تنتهي.. سأتحفك بها، بعد أن أعود من اجتماع قصير في غرفة المميز.

وفي الصمت الخامل، بعد خروج السيد هاشم، قال صوت ممطوط، وهو صوت السيد كاظم:

- نحن نجور على السيد معروف كثيراً.
- مَنْ حَبَّكَ لا شاك.

قال صوت السيد مطر:

ـ المهم أن لا ندعه يدخل في الصمت.

ـ إبتسم، يا سيد معروف، ابتسم.

ـ ما دامت أسنانك سليمة.

الإبتسامة تملأ خيالي. وأنا لست أعور ولا أحول ولا بأسنان اصطناعية. ولو أن الضرب على الآلة الطابعة يشنج أصابعي، ويكاد يقصفها. توقف، ونظر اليها. أعواد نحيلة، ملطخة دائماً، جففها مسحوق الكاربون. كيف تُصافح كفاً رَخصَة على حد تعبير السيد امرىء القيس. ذهب إلى ملك الروم يحاول ملكاً، أو يموت فيعذر. فمات ولم يعذر. فوّت الفرصة، مثلما فوّتها أنا. لو استوقفتها، ونطقت بضع كلمات. أُحاول تكوين علاقة. سأموت ولن أُعذر.. فاعذرني ولا تلمني.. لا لوم.. لا خيل عندك تهديها ولا مال. وقال الشطر الأخير بهمس أشبه بالكلام المسموع: فليسعد النطق إن لم يُسْعِد الحال. ونظرت العيون إليه، ثم تحولت إلى الباب، حين دخل السيد هاشم يحمل إضبارة زرقاء. وضعها على منضدته، واسترخى على مقعده.

ـ نبأ سار.

ـ زيادة؟ علاوة؟؟

ـ لا تحلم أحلاماً صبيانية، يا سيد كاظم.

ـ ماذا إذاً؟

ـ الزيادة، ستكون بعد ذلك. فلا تتعجلوا الأمور. المطلوب منا الآن أن نقوم بفعاليات.

صمتت آخر طابعة.. الطابعة العجوز.

سأل السيد عبد اللطيف، وهو أحد أقرباء السيد هاشم:

ـ أي نوع من الفعاليات؟

ـ كل أنواع الفعاليات . . فرقة لكرة القدم ، للسلة ، للتمثيل . . المهم حشد المواهب وتجميعها في إطار عام .

قال السيد كاظم .

ـ وفرقة للإنشاد؟

ـ وهذه أيضاً .

قال السيد مطر :

ـ هذه الأعمال ضمن الراتب ، أم فيها مخصصات؟

ـ هي بحد ذاتها راتب شرف ـ قال السيد هاشم بفخر ـ أليْس مكافأة أن ننفض عنها غبار الكسل .

ـ أين هذا السيد المحترم الكسل؟ أيدينا تئن من القرع .

ـ أنتم لا تشغلون غير جزء ضئيل من كيانكم . . أصابعكم أدامها الله ذخراً لنا . فماذا لو شغلنا كل كيانكم؟ تلك هي فلسفة الفعاليات .

قال السيد عبد اللطيف بهمة محسودة :

ـ أنا على استعداد . فقد سبق أن اشتغلت في المدرسة المتوسطة حارس مرمى . ولكن قبل أن ينمو لي هذا الكرش اللعين .

وأشار إلى بطنه المندلق حتى حافة المنضدة .

ـ سيذوب بعد قفزتين أو ثلاث .

قال السيد مطر متبرعاً :

ـ وأنا أيضاً ، ربما أصلح للتمثيل . فقد كنت أُقلِّد المعلمين واحداً واحداً . ومرة كنت أُمثِّل مدرِّس العربية ، وأخذني الحماس واندمجت في الدور . والتلاميذ ساهمون . ولم أفق إلاَّ بعد ضربة على القفا . لقد كان المعلم يشهد المسرحية من أولها إلى آخرها . وطردني شر طردة . ولم أعد إلى الصف إلاَّ بعد أن قطعت عهداً على ألا أعود إلى التمثيل . . على الأقل تمثيل المعلمين .

قال السيد كاظم:

- أما أنا فسأنضم إلى فرقة الإنشاد. فلا بد أنَّ صوتي القبيح سيضيع بين الأصوات الضخمة.

قال السيد هاشم:

- كلنا أصحاب مواهب مقبورة. إلاّ أنها تحتاج إلى رعاية.

قال السيد مطر:

- بقي عندنا السيد معروف.
- نعم، إنه موهبة مقبورة أخرى.

تبرع السيد عبد اللطيف ليقول:

- حسناً، ماذا ستفعل، يا سيد معروف؟
- أنا لا أشترك في شيء. لست موهبة مقبورة أو غير مقبورة. أنا مجرد آلة طابعة.
- لا، يجب أن تشترك.
- لا أُريدُ الإشتراك.
- الإشتراك إلزامي.
- ومن قال هذا؟؟
- المدير العام.

صمت السيد معروف، ثم قال في ضيق:

- أنا لا أتدخل في شيء، ولا أصلح لشيء.

قال السيد كاظم:

- ولكنك صلحت لتأليف مقالة.
- تافهة لم تصلح للنشر.. لا، لا.. أنا لا أصلح لشيء.
- قانونياً لا يجوز.
- رجعنا إلى القانون؟ كيف ذلك، يا سيد هاشم؟؟

ـ سأثبت لك ذلك. كل واحد منا ثروة وطنية، حقل نفط غير مستغل. فهل يجوز التفريط به وعدم حفره؟

ـ نعم، نعم.. يجب أن يَدُرَّ السيد معروف شيئاً.. نفطاً أو غازاً طبيعياً. سنتحمل الرائحة، على أية حال، في سبيل المصلحة العامة.

ـ أنا أرض جدباء.. صحراء.

ـ الصحراء الآن أثمن من الأرض الخصبة.

ـ أنا الربع الخالي.

ضحكوا. وقال السيد عبد اللطيف:

ـ ومن قال لك لا يوجد نفط في الرَبْع الخالي؟ جزيرتنا العربية سفينة عائمة على نفط.

ـ حسناً. أنا حقل نفط ناضب.. جاف.

ـ لا، لا يمكن.. يجب أن نتأكد من ذلك.

وأخذوا يحاصرونه. تركهم يثرثرون. دقت أصابعه أغنية حزينة فاترة، على قانونه القديم.. قانوننا وقانونكم. لا، لا أُريد.. طوال حياتي سارح، مستقل بذاتي، لا أتدخل في شيء، ولا يعنيني شيء.. سوى أن أرقب الغروب، وأرى ما يحمل اليّ.. إبتسامة حلوة، وعينان حدوبتان. لا، لا أُريد. متى سينتهي الدوام؟ سأتمشى في العصر على شاطيء النهر. ربما ستخطر على الشاطيء. لي موعد معها، ضربه لي القدر. إبتسامة حلوة وعينان حدوبتان. أنا ثروة وطنية متجولة.. لست ملك نفسي. ماذا لو قالوا لأمي المحروسة إن ابنك حقل نفط، ويجب أن تنتزعه الحكومة منك ليصدر الغاز الطبيعي إلى الخارج. ستقول: في طفولته سرقت له رغيفين من خبز الجيران لأطعمه حتى لا يموت جوعاً. والآن تريدون أن تنتزعوه

مني؟ لا ، سأخرج عائطة. سأشق هدومي.. سأرمي نفسي عن السطح.. إلى غير ذلك من وسائل الإنتحار الشعبية.

وسمع أحدهم يقول :

- ستكون هناك فرصة للتعرف على شريكة حياته.

- ذات الوجه القبيح في المحاسبة؟

- ثروة وطنية أخرى.

- موهبة مقبورة.

- قل مطمورة.. المعادن المطمورة.. المواهب المطمورة.

- لسانك سيوقعك تحت طائلة القانون ، يا سيد كاظم.

- حتى لساني بخلت عليَّ به ، واللسان أنشط عضو فينا؟ الله أكبر.

وكان السيد معروف يقول لنفسه. والأحلام نشاط أيضاً.. لها لسان لا يسمع له صوت ، ولا يضار به أحد. نشاط كنشاط القلب ، لا يهدأ في ليل ونهار ، ولا يكف لدى مزاولتك أي عمل آخر. ومثل دقات القلب لا يخضع لسيطرتك.. أو ربما ينشط حين يزيد الادريادين.. أو الادريالين.. لا أعرف.. شيء على وزن طور سنين يزيد في الدم ، يفور ، ويغلي ، يبرد ، يتثلج ، يجمد ، وتكون النهاية.. يتوقف القلب والدم والأحلام وسائر النشاطات الأخرى.. سكوت ، فراغ.. وحشة.

- سيد معروف ، المميز يدعوك.

توقف نشاط السيد معروف الداخلي. ذهول خرج منه السيد معروف ليرى فراش المميز أمام طاولته. كتلة ثقيلة تتحرك خارج حدود نشاطه. تلفت فيما حوله. كانت عينا السيد هاشم تنظران إليه بنفس الابتسامة الخبيثة. لا حلاوة فيها ، ولا حنية.. إفتراس. وقال السيد مطر :

- لا بد أنه سيناقشة في مسألة الفعاليات.
- مَنْ يخالف القانون يحاسب.
- أو ربما سيناقشه في مسألة زواجه المتأخر، ولا سيما وأنَّ الفرصة سانحة. إذا تزوجت امرأة تشتغل بالمحاسبة نظمت حياتك كالمسطرة.

دق السيد معروف الباب بقلب واجف.. أدرنالين.. وصدرت «ادخل» غامضة مكورة، مثل كلمة تقال في الحلم. فتح الباب، ورأى الاستاذ المميز. صلعته اللامعة، بالأحرى، نظارته السميكة، قذاله الاشيب، الناتيء فوق اذنه الكبيرة، صفحة خده العريضة المتضرسة، مثل رغيف خبز على وشك أن يحترق من كثرة ما بقي في تنور الوظيفة. إعوجاج رقبته الغليظة. شعاع مصباح الطاولة المؤطر لوجهه كله. كان الاستاذ المميز يكتب ببطء قاتل، وبخط ثقيل، وكأنما يتهجى الكلمة تهجياً. وهي عادة لاحظها فيه السيد معروف منذ أول اشتغاله معه ككاتب تحرير. وقف ينظر إليه صامتاً، فقد خشى أن يتكلم فيخرج صوته متحشرجاً، غير طبيعي، قبيحاً في صمت الغرفة شبه المظلمة. بعد دهر من الانتظار حرر الاستاذ المميز القلم من بين أصابعه الغليظة التي كانت تصلح لكل شيء إلاَّ للكتابة، وألقاه على الورق الأبيض. لم يلتفت إلى السيد معروف مباشرة، بل صوب عدستي عينيه إلى الحائط المقابل لحظات، وكأنما يفكر في مسألة عويصة لا يعرف كيف يخرج منها.. ودون أن ينظر إليه أشار إلى مقعد وقال له:
- إسترح!

فرك الاستاذ المميز صدغيه بأصبعيه الوسطى والابهام، وكأنما ليتغلب على صداع كان يطوق رأسه، وفشل على ما يبدو، فرفع

نظارته إلى جبهته ، وفرك عينيه هذه المرة ، وترك النظارة تهبط لتستقر في مكانها أمام عينيه. وعاجله بسؤال غريب :

- كيف أنت هذه الايام؟

رفع السيد معروف صدره ، وكأنه قد استفز . هل من المعقول أن الاستاذ المميز استدعاه ليسأل كيف الصحة وكيف الاحوال؟

- نحمده ونشكره ونسبح بآلائه.
- تعابيرك القاموسية.
- مذكورة بالقرآن الكريم.
- كنت أُريد أن أسألك عن حياتك الخاصة.
- لا جديد فيها ، يا استاذ عبد الرحيم.
- غير معقول.

وتعجب السيد معروف في سرِّه ، كيف عرف أن شيئاً جديداً دخل في حياتي؟ إبتسامة حلوة ، وعينان حدوبتان؟ وقال السيد معروف منكراً :

- اصدقك القول ، يا استاذ عبد الرحيم.. ربما ذلك غير معقول ، ولكنه حقيقي.
- مع مَنْ تلتقي في هذه الايام؟
- مع مَنْ؟ لا أحد ، يا استاذ عبد الرحيم.

وتكسرت نظرة السيد معروف مخذولة على زجاج نظارة المميز السميكة. تضاريس الوجه صلبة حادة خشنة تخفي تشككاً وصرامة ، وتصل ما تقطع من تاريخ مليء بالمنغصات. والصمت يتضخم إلى شيء لا يحتمل ، خشي السيد معروف أن ينفجر فقال مدارياً :

- هل أنت مغثوث من شيء ، يا استاذ عبد الرحيم؟

ـ لا ، أبداً .

ولم تبعث لا النافية الطمأنينة في نفس السيد معروف ، بل زرعت في ظهره برودة لا إرادية ، وبددت في خياله كل أمل في ابتسامة حلوة ، وعينين حدوبتين .

ـ أما زلت متأثراً من «نُمي الينا »؟

ـ حذلقتك اللغوية لا تهمني . من يقرأ سيبويه الآن؟

ـ وأنا أيضاً .

وضحك السيد معروف ضحكة باردة قطعها الاستاذ عبد الرحيم بجملة غامضة :

ـ ولكن المهم القصد والغاية . . الفكرة التي تسيطر على الدماغ وتدمره .

ـ لم تسيطر أية فكرة على دماغي .

ـ سيطرت ، سيطرت .

ـ أية فكرة؟

ـ كنت تريد أن تغير لغة المكاتبات الرسمية .

ـ أبداً والله . ولكني كنت أُحب أن أُلطِّفها . وهذا أيضاً تِبْتُ منه . . حتى الأخطاء النحوية لا يهمني أمرها الآن .

ـ أخطاء؟ هذه هي الفكرة المدمرة . كل الذين لا يعجبهم شيء ، ويريدون رفضه أو تبديله قالوا إنه خطأ ، ليأتوا بفكرة من عندياتهم .

ـ ولكن هناك أخطاء نحوية واضحة .

ـ لا يوجد خطأ نحوي واضح . . إن هذان لشاعران . هل هو خطأ واضح؟ قل لتفكر .

ونظر إليه نظرة تحدٍ واعتزاز بهذا المثل المُحيِّر من القرآن

الكريم. وبدأ السيد معروف يتراجع.
- أنا آسف، يا استاذ عبد الرحيم.
- إذا جئت إلى المكاتبات الرسمية كابسط مثال. منذ أن خلقت حتى الآن هي على حالها. يفهمها الناس، وتُسيَّر فيها الأعمال، وتُحل المشاكل. فلماذا ندس أنوفنا فيها؟ لماذا ندمرها؟ وما الفائدة من فتح باب جديد من المتاعب؟
- أنا آسف.
صمت الاستاذ عبد الرحيم، ولعبت يداه بالاوراق.
- نعود مرة أخرى إلى علاقاتك.. جررتنا إلى موضوع آخر.
- أية علاقات، يا استاذ عبد الرحيم؟
- علاقات، علاقات خافية علينا.
- ليست لي علاقات، يا استاذ، لا خافية ولا علنية.
- علاقات تغيِّر تفكيرك.
وقال السيد معروف في سره: موفق.. هل يقصد موفق؟ هل كان ورائي حين نبع موفق من جحر الليل. وأحس بضيق شديد، وركبه شيطان العناد، مثلما يركبه في كل موقف من مثل هذه المواقف، وسيطر على لسانه، وأجرى عليه جُملاً شيطانية فالتة: قال بعد صمت:
- أعترف لك، يا استاذ عبد الرحيم.. عندي علاقة قوية..
- أها.. شفت؟ مع مَنْ لو سمحت وتفضلت.
- مع الغروب، يا استاذ عبد الرحيم.
- مع مَنْ؟
- مع غروب الشمس.. في كل مساء تقريباً أراه من خلف زجاج مقهى جبهة النهر.

- هل أنت تهزل؟
- لا ، والله . وليتك يا استاذ عبد الرحيم . ترى الغروب مرة واحدة ، فستراه مرات .
- وهل تحسبني عاطلاً لا عمل لي؟ .
- ربمايهدي لك ابتسامة حلوة ، وعينين حدوبتين .
- ما هذا البطر؟
- أتحسبه بطراً ، يا استاذ عبد الرحيم؟ آه ، لو رأيت ما رأيت البارحة؟

ومن فرط ما كان يفيض في داخل السيد معروف من رقة وعذوبة وملائكية خُيِّل إليه أن التضاريس على وجه الاستاذ عبد الرحيم قد تثلمت . ألعله يبتسم ، في داخله ، لخفة روحه؟

- ماذا رأيت البارحة؟
- إبتسامة حلوة ، وعينين حدوبتين؟
- هي التي لعبت بعقلك وحولت تفكيرك؟ لا تنس أنك موظف دولة .

إرتد السيد معروف ، وأرخى شيطان العناد سيطرته على لسانه .

- عقلي ليس كرة يُلعب بها .

قال الاستاذ عبد الرحيم محتداً :

- كرة أو دعبلة . . هذا لا يهمني . . ولكن يهمني التخريب الحاصل في تفكيرك . . من هذا الذي يخرب تفكيرك؟
- لا أحد .
- أو بالأحرى . . هذا الذي يحول تفكيرك إلى جهة غير مأمونة .
- لا أحد .
- عندي شيء ملموس ، مستمسك .

ـ وهل يلمس الخيال، يا استاذ عبد الرحيم، ويتحول إلى واقع..
ليته. ولكن ذلك لا يحصل، مع الأسف الشديد..

ـ عندي مستمسك.. تعال.. اقترب.. ما هذا الذي كتبته في كتاب رسمي؟ الموضوع: تحويل تفكير.

وأحس السيد معروف بأنه أشد حاجة إلى الكرسي الذي تهيَّب أن يقعد عليه، فإن رجليه بدأتا تسيحان. وسمع صوت الاستاذ عبد الرحيم يأتي إليه من كل جانب، ويطوقه، ويكاد يخنقه:

ـ في مكاتبة رسمية تسمح لنفسك بأن تكتب تحويل تفكير.. تفكير مَنْ هذا الذي تريد أن تحوله؟. الدائرة؟.. الدولة، المجتمع؟ هذا شيء يحاسب عليه القانون.. هذا.

والكلمة التي لم ينطق بها كانت أضخم من كل التهم.. لأنها ملأت فمه، وشنجت أوداجه، فغص بها وعجز عن النطق بها. نبشت يداه في الاوراق الموضوعة أمامه، وخربشتا كفأرين حانقين. وأمسكتا بالكتاب المشئوم، وطوتاه أربع طيات، وغاب الكتاب في جيب سترته.

ـ زين.. رح!

عاد السيد معروف إلى غرفته، وجلس مطويَّ الجذع أمام آلته القديمة. وكانت يداه قد خرجتا عن سيطرته هذه المرة، فدسهما في جيبي بنطلونه. وظل منكّس الرأس، ذاهل الذهن حتى آخر الدوام.

في البيت اتجه إلى حجرته دون أن يسأل عن صحة أُمه، وهي عادة اكتسبها مع مرور الايام، وتقلب الصحة بين اعتلالٍ واعتدال. كان يشعر بمثل قشعريرة خبيثة تسري في أوصاله، وانحلال في جسده كله، خلع ملابسه على عجل، واندس في فراشه،

طاوياً رجليه على بطنه، شابكاً ذراعيه فوق صدره، محاولاً أن يتغلب على الارتجاف اللاإرادي. دخلت مرهونة عليه الحجرة تحمل صينية الغداء. صدمته رائحة الطعام الثقيلة. تقلبت معدته. وسرت رعشة ظالمة في ظهره. قال بصوت ممتعض:

- لا أُريد أن آكل. تغديت في الدائرة.

سمعت مرهونة اصطكاك أسنانه. قالت بصوتها المتفجع:

- ماذا بك؟ لزمتك الباردة؟
- إسكتي.. ستسمعك أُمي.. دثريني!
- اللحاف فوقك.. في مثل هذا الحر.
- بطانية.. أُريد بطانية.

إبتعدت لتجلب البطانية. ناداها:

- مرهونة.. أخرجي الصينية. معدتي تتلوى.
- من الجوع.
- لا ترفعي صوتك.. ستسمعك أُمي.
- أُمي.. أُمي.

شش.. دثريني.. معدتي. رأسي.. رأسي كالطبل. شش. باردة. إسكت. لا تفكر. الموضوع. تحويل تفكير. استاذ رحيم لا أُفكر. والله العظيم لا أُفكر. شش. باردة. لا أُفكر.. لا.. أُفكر. مكاتبات رسمية. يحاسب عليه القانون. استاذ عبد الرحيم عن اذنك.. أشِشه باردة تنتَهِضُ الرِعدة في ظُهيري من لدن الظهر إلى العُصير.. برد.. باردة. دثروني وين البطانية وقعت في مصيبة ستين مصيبة سبعين مصيبة لطول العمر مستمسك وتعال يا حمار وخلص نفسك من هذه الوحلة لطول العمر أشه باردة دثروني عن إذنك استاذ رحيم باردة إسمح لي أشه باردة وين البطانية يبرد لي

تجي لك الطلايب وأنت نايم طركاعة طررررررركَاعة طار وقع طرت وقعت طركَاعة طيرة خفيفة وقعة ثقيلة ابتسامة حلوة وعينان حدوبتان من أين جاءتني هذه الحسبة لطول العمر رقبتي طويلة تتحمل طراقيع الدنيا طرقاعة طر.. طر.. يا ريتني طير، وأطير حواليك طررر قاعة تستأهل مدّد على طول غطاك تفكر بابتسامة حلوة وعينين حدوبتين طركَاعة كلها إذاً بالعافية خلص نفسك من هذه الوحلة إذا غامرت في أمر عظيم فلا تقبل بغير الطركَاعة ابتسامة حلوة وعينين حدوبتين أين هي الابتسامة الحلوة والعينان الحدوبتان. راحت تبخرت يا حادي عيسها واحييني أوجد ميتاً قبيل أفقدها.. شش طركَاعة قفا قليلاً بها عليّ فلا أقل من نظرة ازودها ففي فؤاد المُحِب نار جَوى أحر نار الجحيم أبردها أششه باردة استاذ عبد الرحيم أنا مسكين عندي أم عجوز وأُختان موفق نعم موفق من أين عرف ذلك يعرفون كل شيء.. كان يتتبعني انشقت الظلمة عنه صندوق الليل تابوت الليل تبسمرت لا حيصه ولا بيصه انقبرت قبراً ينقبر فهو مقبور موهبة مقبورة أششه مطمورة وين البطانية مستمسكات وهل يمسك الخيال أُوي يُمَّه معدتي على بختك معدتي تلويني.. ألعن أبو معدتي يابو إللي سواها معدة لا تفكر بها جاي ماي حليب جبن واحد اثنين ثلاثة أربعة خمسة الساعة خمسة دقت الساعة خمس دقات العصر جاي الغروب متى سأدفأ أُريد أن أذهب أتمشّى على الشاطيء. الغروب في الساعة السادسة والدقيقة الثانية والعشرين عظامي آخ عظامي نخره والله العظيم عبد الرحيم لا يعرف هذه الكلمة إبتسامة حلوة وعينان حدوبتان سيحذفها من أيّ كتاب رسمي أوف برد احس عظامي نخرة ثقل يسحقني ها حطت مرهونة بطانية عليَّ وأنا لا أدري بطانية ولحافاً ابنت الدهر عندي

كل بنت فكيف وصلت من بين البطانية واللحاف كأنني وقعت في السطح تدعبلت الدعبل بيض الضفدع دعبل الخزاعي.. لو كنت من مازن لم تستبح إبلي بنو اللقيطة من ذهل بن شيبان إذن لقاموا لم يقوموا قاموا لم يقوموا.. سأقوم أنا حان وقت اللقاء ابتسامة حلوة وعينان حدوبتان أحسها في فؤادي آسف يا آنسة ما اسمك صبيحة مليحة سلوى نجوى ليلى ليلى المريضة في العراق أنا المريض في الفراش مريض مريض مريض..

فتحت مرهونة الباب، وأطلّت عليه:

- معروف، هل صحت عليّ؟
- لا.
- ما زالت الباردة لازمتك؟
- أحسن، أخف.. أحر نار الجحيم أبردها..
- يا جحيم؟
- إسكتي.. أغلقي الباب.. لا تقولي لأمي.

ست دقات.. السادسة. الغروب الغروب يا ناس الغروب صبيحة على الشاطيء الشمس تتمشى على صفحة النهار ذكاء قلق المليحة هي مسك هتكها ومسيرها في الليل وهي ذكاء أسفي على أسفي.. لست الآن على الشاطيء حرارة عرق غزير أزاح الدثار الأول. رفس الدثار الثاني. سكبت البرداء ماء وجهها على جسده. اللزوجة تلصق دشداشته على ظهره وصدره. إختناق. ضيق أنفاس. ربما يستطيع أن يلحق بالغروب. ودّ لو تكون له جناحان. يا ريتني طير، وأطير حواليك. لو خفّ رجله، وانسل من البيت وذهب إلى هناك. إبتسامة حلوة، وعينان حدوبتان. وقف أمام

المرآة. رأى وجهه مظللاً. دهليز مظلم تحت ذقنه فزع لمرآه. رقبته الطويلة ازدادت طولاً. غوران تحت وجنتيه. هل من المعقول أنه كان بهذا الشكل الممسوخ البارحة، حين استقبلته إبتسامة حلوة، وعينان حدوبتان؟ ماذا ستقول عنه الآنسة (س)؟ لا، لا، لن أذهب. لا أقطع خيط الامل. عاد إلى سريره، وانسل فيه. أي حظ تعيس حظه؟ لو يذهب إليها اليوم، اليوم فقط، ليؤكد لها أنه لاحظ ابتسامتها. ولا بأس إذا تغيب غداً وبعد غد. لو يثبت لها أنـه التقـط اللفتـة، وعرف المقصود.. اليوم، اليوم هو الشاهـد الوحيد على وفائه. أي حظ عاثر حظه. يتمرض في أُمسية الوفاء هذه. ستنساه غداً. ستقول إنه ليس ذكياً تكفيه الإشارة. ليس وفياً، ولا ذكياً، ولا محتاجاً إلى ابتسامة حلوة وعينين حدوبتين. تنصل منذ اليوم الأول. ذهب ولم يعد. ربما هو متزوج، وله خمسة أولاد.. لا، والله، يا آنسة.. أُريد أن أُثبت لها ذلك.. أُريد.. ودفع الغطاء ثانية، وعكف ساقه، وهمّ بالنزول حين سمع دقات الساعـة.. واحـد، اثنـين، ثلاثـة، أربعـة، خمسة، ستـة، سبعـة. الغروب غادر المدينة، واتجه صوب الصحراء. ربما هو على أبواب دمشق الآن. يعسجد مسجدها الأموي، وبعد ذلك ينحدر إلى جبال لبنـان.. قـبرص.. صقليـة.. مـالطـة.. كورسيكـا.. إخوان كورسيكا.. جبـل طـارق.. البحر من ورائـكم، والليـل أمـامـكم، وليس لكم والله إلاَّ الارق والتفكير تحويل اسكت حوّلت فكرك وكفى. الإنسان يحول فكره مرة وبعدها فلاة إلى غير اللقاء تجاب. لماذا هذه العداوة، يا استاذ عبد الرحيم؟ هل كفرت حين شطبت على «نحيطكم علماً» أيام كنت أجلس على منضدة السيد هاشم؟ هل تزندقت حين أدخلت في كتاب رسمي «نُمِيَ الينا»؟ وما ذاك إلاَّ

أن ادلّ عوازلي على أنَّ رأيي في هواكِ صوابٌ..

- معروف، هل أصب العشاء.

- بعد شويه.

- هدأت معدتك؟

- تقريباً.. لا أظن..

لا أظنه متأثراً من ذلك راحت تتخبل على التلفزيون مستمسك جرمي ربما رأت ابتسامة حلوة وعينين حدوبتين تمشت على الشاطيء وطوقته بعينيها لم تأت للعشاء حتى الآن سحر هذا التلفزيون سحر أعوذ بالله من الشيطان ليلة نابغية وليل كموج البحر أرخى سدوله ماذا يبتلي الله لو تسمع هي واحد اثنين ثلاثة أربعة خمسة ستة سبعة ثمانية تسعة أنَشّف عرقي وأخرج، صرت زين.

نهض من السرير. صفا وجهه قليلاً من بعض الظلال، حين أضاء المصباح الكهربائي. الرقبة لامعة والجبين والانف. مسح العرق. لا بأس. لست أحول ولا أعور ولا أخشم ولا أشرم ولا مجرور الاذنين. ولكن هذا التعب الطاغي، وتفكك المفاصل ألجأه إلى السرير ثانية. فكر أن يأكل لقمة. أرجأها بعد الاستراحة. وتثاءب، وطوى ذراعيه على صدره، وغفا. أيقظته دقات الساعة في الليل مرتين. بدت له مثل دقات على آلة طابعة. كرهها، ولم يرد أن يعدها. نوم متقطع يغرق في لجته، ثم يفيق. أحلام مجزأة، هي نتف من واقع اليوم البارح. في آخرها أطل الاستاذ عبد الرحيم على رأسه يحمل أوراقاً. إستيقظ السيد معروف. واستغفر له، ونهض من سريره، وخرج يستنشق الهواء في الحوش. كان رماد الفجر يكحل عين الحوش العوراء. رأى أمامه المغسلة التي اشتراها قبل شهر تلوح بيضاء عند الحنفية، وسخَّان الماء بشريطه الازرق ينتصب كقالب

كبير من الثلج. وساعة الليوان تقترب من السادسة. وفي الغرفة المقابلة رأى أمه جالسة على سريرها، متكورة، معزولة، مهجورة، تشد فوطتها البيضاء بيدين عمشاوين. أحس بإشفاق موجع نحوها، كأنما رآها على قارعة الطريق تستجدي عطف الناس. دخل الغرفة، وصبَّحها بالخير. رفعت رأسها نحو مصدر الصوت، ومدت يدها إلى أمام تريد أن تمسه.

- كيف أصبحتِ، يوم؟

- لم أنم الليل كله، أسمع دقات الساعة. لم تدق ست دقات بعد.

- على وشك. طلع النهار.

- يا ليتني أرى النور.

سمع الشكوى للمرة الألف، ولكنه أحس بألم ممض للمرة الألف. فهذه المخلوقة العاجزة شبه العمياء هي التي ربته، وسرقت، في طفولته، رغيفين لتطعمه وأُختيه. لقد رأى ذلك رأي العين وانغرز في الاعماق القصوى من ذاكرته كشوكة تدميه.

- كيف نمت؟

شكر مرهونة في سره لأنها لم تخبرها بما حلّ به.

- جئت من الدائرة تعبان، فنمت كالحجارة.

- نوم العافية. لم تحس حين جاءت محبوبة.

- لا، متى جاءت؟

- بعد أن دقت الساعة عشر دقات بوقت طويل.

- كل ذلك في بيت الجيران.

- بيت الجيران!.. سحر! أُختك مسحورة.

- سآخذ سلفة من الدائرة، وأشتري تلفزيوناً بالتقسيط. إذا كانت مسحورة بالتلفزيون بهذا الشكل.

ـ مسحورة ، ولكن لا بالتلفزيون .

ـ ماذا تقولين؟

ـ أُختك عاشقة .

وناحت بغموض وأسى كذلك الغموض والأسى اللذين يلفان قسمات وجهها المظلمة الممسوحة ، المنطوية على أسرار حياتها .

ـ ومن هذا الذي تحبه؟ أتعرفين؟

ـ أعرفه ، وأنت تعرفه . . ولكن لا أُريد أن أغثك . . يدك حارة .

وكانت يدها قد دبّت حتى صعدت على يده ، في محاولة يائسة لإيجاد نصير . أم لعلها تشعر بالذنب في هذا الأمر؟ تذكرت وقارنت ، ووخزها ضميرها ، وامتلأ صدرها باللوعة .

ـ من هو؟ قولي .

ـ فضيحة .

ـ من هو؟

ـ حتى الساعة التي كنت أنام فيها طارت منذ أن سمعت .

ـ لا تعذبيني! قولي .

ـ لا يخطر على بالك . مَنْ السايب أبو الطلايب في المحلة كلها؟

ـ ما هذا الذي تقولينه؟

وكوّرت فمها ، فخيّل إليه أنها ستنطق باسمه في اللحظة التالية ، تحركت سورة غيظ في أعماقه . فاوقفها بأن وضع يده على فمها :

ـ لا تذكري اسمه . . عرفته . . لا حاجة!

وتلفت ، وكأنما يخشى أن تكون مرهونة أو حتى محبوبة تسمع همسهما . كان الظلام الشاحب في الحوش قد كشف ، وخلفَّ وراءه زرقة فضية كدرة . نهض من جلسته غير المريحة على حافة السرير ، ففرقعت فقرات ظهره . عرج في الخطوة الأولى . أجال بصره فيما

حولـه. وقـال في نفسه: «أين الشروق الـذي يريـدني موفـق أن أراه؟.. ربما هو في بيت الجيران؟ بيت الجيران، بيت الجيران.. محبوبة تحب. ومن؟ أبو الطبول! راح يدق لي طبول.. يا ساتر.. يا رب.

قضى حاجته بعسر شديد. ثم ذهب ليغسل يديه في المغسلة الجديدة. وكان انسكاب الماء على وجهه مريحاً ومنبهاً جعل فكره في يقظة تامة. آمن كلياً بمقدم نهار جديد. لو كانت القصة قصَّة تلفزيون استدان، واشترى، وحلَّ العقدة. ولكن عقدة محبوبة الآن لا يحلها الدَيَّان.. مشكلة أخرى. مستمسك آخر. كلها منك، يا أستاذ رحيم.

هتف بالجملة الأخيرة في ضيق. جاءت مرهونة راكضة.

ـ صحت عليّ معروف؟

ـ لا، كنت أتحدث مع نفسي. أستعيذ من الشيطان بالرحمن.

هل سبق لك يا آنسة مرهونة أن تحدثتِ إلى نفسك؟ هل سبق أن ضبطوا عليك مستمسكاً جرمياً؟ قصة تلفزيون.. غروباً.. ابتسامة حلوة وعينين حدوبتين؟ لا، أبداً أبداً؟ لا يخلو أي إنسان من مستَمسك جرمي؟ قـادر، يـا شيـخ عبـد القـادر! هذا مستمسكك الجرمي.. صينيـــة مسودة الحواشي، عليهـــا صحن جـــبن منقوع واستكان شاي يعدل الدماغ. يجعل الإنسان يفكر. لا، خطر! من الصبح!

ـ البارحة جاء صاحب الحوش، فخفت أن اوقظك. قلت له مسخن.

ـ جاء أبو صريح العبارة ليأخذ زيادة جديدة؟

ـ لا، يقول إس إس.. ملاك.

تعذر عليها أن تنطق بالكلمة، فساعدها معروف على ذلك:

ـ إستملاك! دعيه يستملكني أيضاً.. يستملكنا كلنا. والله لا أخرج من هذا البيت إلاَّ على رؤوس الحراب.

نظرت إليه مشدوهة. لم تعرف على أية رؤوس سيخرج أخوها من البيت. ربما يريد أن يقول الخراب. فأخطأ، مثلما أخطأت هي في لفظة إس.. إس.. ملاك. حدس أخوها ما يجول في خاطرها، من نظرتها المشدوهة والارتخاء في وجهها المسحوب. قال يفسرها لها.

ـ يعني لن أخرج.. بالسكاكين ما أخرج. وأين نذهب؟.. في هذا البيت قضيت أكثر من عشرين سنة، وتدرجت بالايجار من ثلاثة دنانير إلى خمسة وعشرين ديناراً. فماذا يريد حاج شكر؟

وبعملية ذهنية حاول أن يحسب عدد الكتب التي يطبعها الآن من نوع «كتابنا وكتابكم» ليسدد الإيجار الشهري لصاحب البيت، وتعذر عليه ذلك. فقال:

ـ خلاصتها.. كثيرة بموضوع تحويل تفكير أو بغيره.

قالت مرهونة متمنية:

ـ بلكت الله يحول فكره.

ـ لن يحوله. نتحول نحن ولا يتحول.

فهمت مرهونة «التحويل» بمعنى الإنتقال إلى بيت آخر. رفضت رفضاً باتاً، وتساءلت ملتاعة:

ـ من يتحول في هذا اليوم الاسود؟؟

ـ نحاول ألا نتحول.

ـ التحويلة تكلِّف.. تهرىء الجلود.

ـ أحسنت، و تقولي الجيوب.. لأنها مهترئة من الاصل.

وتأوه السيد معروف ، وتأوهت أُختـه بالعدوى ، أو التبعية ، وكأنما تثاءب أمامها . تثاءب عمر . .

ـ الخلاصة . .

ونهض السيد معروف ، وأمسك خاصرته ، وقال متوجعاً كالمرأة : أوف ، ظهري . . لا ، لا بأس .

رفّت في أنفه رائحة كاربون لا يعرف من أين جاءت . ذكرته بالساعة . وكانت قد دقت سبع دقات . ولكن ذهنه كان مشغولاً فلم ينتبه إليها . إستعجل . في الباص ذكرته الدفعات الآتية من الخلف بتعريف فعل « إندحس » . لا وجود له في القاموس الذي يعتمد عليه . أساس البلاغة للزمخشري . ولكن المزيد من الافعال كثير في اللغـة العربيـة يجعْلـك تقول « إنـدحس » مثلمـا تقول إنكسر . إندحس ، يندحس ، فهو مندحس . تأخر ، يتأخر ، فهو متأخر عشر دقائق على الدوام . كفى ، يمكن القول . يا ربنا ، نجنا من الدحس المفاجىء ، الخلفي منه والجانبي . والأمامي مقبول . كفى ، لا تسمم صباحك بحرب ضد اللامرئيات . دخل الدائرة . صباح الخير ، صباح الخير . مرّ بقسم المحاسبة . هل يلقي نظرة؟ إبتسامة حلوة . لا ، معلَّبة . ليس فيها شذى الاصيل . ليست ممزوجة بطراوة النهر . وعدل عن الفكرة .

ـ صباح الخير .

ـ صباح الخير ، آغاتي . اليوم متأخر ، سيد معروف .

ـ بضع دقائق .

ـ هل ستحضر اجتماع النشرة اليوم؟

ـ قلت لك البارحة اعفوني من اللجنة . ما عندي علاقة لا خفية ، ولا علنية .

في الغرفة نقل «النفاضة» باصبعين من منضدته إلى منضدة أخرى قائلاً.

ـ نفاضتكم، يا سادة.

ضحكوا ضحكة جماعية.

ـ نرجو المعذرة، نسيناها.

ـ وستنسونها غداً أيضاً. أنا أعرف.

ـ لا نستطيع أن نكتب لك عهداً بذلك.

ـ أفهم. لا تعهد. الإنسان ميال للنسيان.

ـ أحسنت يا سيد معروف. لا فضّ فوك.

إبتسم السيد معروف لجملة السيد هاشم هذه. كلمة حق يراد بها باطل. تعبير بليـغ يراد به معنى مبتذل. سامحكم الله، أو قاتلكم الله. سيّان عندي. ذهب الناس وبقي النسناس. لا تريدون أن تقدموا تعهداً. هذا طيب. ربما هذا من حقكم، أن تعيشوا بلا مستمسك جرمي.

قال السيد كاظم:

ـ ما معنى: لا فُض فوك، يا سيد معروف؟

تلكأ السيد معروف بالرد فتبرع السيد هاشم كاتب التحرير:

ـ الفوه يعني الفم. وفضّ معروف. فضّ غشاء البكارة.

رفع السيد معروف رأسه، وحاول أن يعترض، ولكن لم يجد ميلاً لاستخدام صوته. قال السيد مطر:

ـ هذا ما ندعوه إليه، أن يفض بكارة. ولكنه مؤمن بمبدأ الاكتفاء الذاتي إيماناً لا يتزعزع.

السيد عبد اللطيف:

ـ سيتزعزع حين يلقي نظرة في قسم المحاسبة.

السيد هاشم :

ـ القدر سيتكلف بالأمر .

ـ كل شيء قضاء وقدر .

قال السيد كاظم :

ـ لا تجوروا على السيد معروف . فالقضاء والقدر وحده جعله يعمل بيننا كاتب طابعة .

إهتبلها السيد هاشم فرصة .

ـ وإلاَّ لكان الآن في خدمة القانون محامياً يشار إليه بالبنان .

قال السيد عبد اللطيف :

ـ خفتم على فمه أو فيه من الفض ، فاعتصم بحبل الصمت أو بجبل الصمت . لست أدري كيف يقولون .

السيد هاشم :

ـ سيسكت دهراً ، وينطق كفراً .

السيد مطر :

ـ لماذا لا تستخدم لسانك ، يا سيد معروف؟

ـ صحيح لماذا؟

قال السيد كاظم :

ـ حتى الدهر انتهى . الساعة تجاوزت الحادية عشرة . وأنت نفسك قد قلت : كل ساعة هنا تعادل دهراً .

السيد هاشم :

ـ هل قال ذلك؟

ـ لا لم يقله صراحة .

ـ لا فرق . نية الاجرام واضحة .

فتح الباب ، وأطل فرَّاش المميز :

ـ سيد معروف، الاستاذ عبد الرحيم.

طاردته كلمة السيد هاشم:

ـ سيتكلم هناك.

بالفعل كان السيد معروف مضطراً إلى أن يتكلم بعد أول جملة نطق بها الاستاذ عبد الرحيم. فاجأه بالسؤال:

ـ هل أنت مستعد لأن تعمل معي؟

إرتبك السيد معروف، وتحيّر وقال رأساً:

ـ ولكنني أعمل معك.

ـ أقصد تتعاون معي.

ـ وأتعاون. هل نحن أعداء، يا استاذ عبد الرحيم؟

ـ في المدة الأخيرة، وبعد انتقالك إلى قسم الطابعة أعتقد أنك تنظر إليّ نظرة عدائية.

ـ أبداً، والله. سلّمني أي عمل تجدني مخلصاً بأدائه، بحدود إمكانياتي طبعاً.

ـ ثم جاء العقل الباطن فكشف عن التحويل الحاصل في ذهنك.

ـ لا، والله. كما أنا.

ـ العقل الباطن، سيد معروف، ينطق بالمكنون.

ـ كان خطأ غير مقصود.

ـ ولكن لماذا هذا الخطأ بالذات؟ الموضوع: تحويل تفكير. ثم لماذا لم يتورط زملاؤك بما تورطت فيه؟ يعني توجد قاعدة، أساس. العقل الباطن سيد المحققين.

ـ كل عقلي في الظاهر، يا استاذ عبد الرحيم.

ـ ثم هذه.. ماذا سميتها ابتسامة بديعة؟ وتدعوني إلى أن أترك شغلي وأشاهد الغروب. ماذا تسمي هذا؟

ـ صعب أن تفهمني ، يا استاذ .

ضحك الاستاذ ، وقال يمط كلماته :

ـ لغز؟ حزورة؟ ربما ، وأنا أدري . قد يكون هناك شيء غامض عليّ . ولكن هذا غير مأمون الجانب أيضاً . كل شيء يجب أن يكون واضحاً مكشوفاً ، إذا كان ليس فيه ما يعيب أو يحرج أو يعرض لتهلكة أو سوء أو محذور .

ـ ليس فيّ عيب ، يا استاذ عبد الرحيم ، لست أعرج ولا أهوج ولا مأفون العقل . أقسم لك بشرفي .

ـ أرجو ذلك .

ـ لم أتعدَّ حدود القانون .

ـ أرجو ذلك . ولهذا عرضت عليك أن تتعاون معي بشكل أوثق .

ـ تؤمر .

ـ أين مقالتك عن تاريخ النقل؟

ـ في البيت .

ـ إجلبها لأضيف إليها ، وأعدل بها ، فتخرج شيئاً جديداً لا ينسب لك .

ـ منذ البداية ، يا استاذ عبد الرحيم ، لم أرد أن تُنسب إليّ . كتبتها للمصلحة العامة . فلتذيَّل بأي توقيع .

ـ لطيف . تعجبني . ثم إن لي أفكاراً سطرتها برؤوس أقلام ، وليس لي الوقت الكافي لأكتبها بالصيغة النهائية . خذها معك ، وأبسطها على الورق .

وقدم له قصاصة صغيرة مكتوبة بخطه المفلطح الغليظ .

ـ بحدود كم صفحة تريدها؟

ـ بحبحها . . . بحدود ست . سبع .

ـ تؤمر.

ـ ونمقها باستشهاداتك.. أنت تعرف الأشياء من مظناتها، كما يقولون.

ـ العفو، يا استاذ عبد الرحيم، من مظانها، جمع مظنة، أي المرجع أو ما يظن أنه فيه.

ـ كلمة ثقيلة. لا يهم. هل اتفقنا؟

ـ إتفقنا.

ـ ولا حاجة إلى تحويل تفكير؟

ـ أقسم لك.

ـ لا حاجة إلى قسم. المستقبل يكشف كل قسم.

وعندما خرج السيد معروف من غرفة المميز، وجلس على منضدته، أحس بأنه أزاح عن كاهله ثقلاً. وقال لنفسه لا بأس. وهل كنت أطمع بأن أكون كاتباً، وتدركني حرفة الأدب المشؤومة؟ كتاب العربية الفطاحل كانوا يؤلفون الكتاب للكبار، فيمنحون مُنَحاً، ويتقون شراً ولو كانوا يكتبونها باسمائهم. والجاحظ طيب الله ثراه اتقى تنور الزيات برسالة موجعة مفجعة، في الجد والهزل، ينفي عنه التهم الباطلة، ويفرق بينه وبين صاحب نعمته. أنت طويل وأنا قصير. أنت أصلع وأنا أنزع. أنت صاحب براذين وأنا صاحب حمير. أنت شاعر وأنا راوية. أنت ملك وأنا تابع. أنت مميز وأنا كاتب طابعة. ومن أنا بالمقارنة بالجاحظ، وهل أطمح طموحه؟ لا أُريد إلاَّ أن تعود طمأنينتي الأولى، واستقبل الغروب كل يوم، وأفتش في الشاطيء عن ابتسامة حلوة، وعينين حدوبتين. فاذا كنت تريد المقالة فخذها يا أسد، يا استاذ الصنعة، صاحب الصلعة..

وسرته نتيجة التفكير ، وأهدت له نفحة من الطمأنينة والامان ، وكأنما قرأ رسالة الجاحظ كلها في سره ، الرسالة التي يحفظ مقاطع كبيرة منها ، ويترنم بها في خلواته .. جُعِلْتُ فداك ليس من أجل اختياري النخل على الزرع اقصيتني ، ولا على ميل إلى الصدقة دون إعطائي الخِراج عاقبتني ، ولا لبغضي دفع الإتاوة والرضا بالجزية حرمتني . لطيف يا أستاذ جاحظ .

فرك يديه بحيوية ، واستقبل آلته العجوز . وتراقصت أصابعه على مفاتيحها بمرح وخفة . وكانت عيناه كعدستي آلة تصوير جادتين مرهفتين تلتقطان ما سُطِّر على الورق إلى يساره ، فيخرج كلمات متناسقة قوية نظيفة ، صالحة لتوقيع أصحاب النعمة .. ليس من أجل اختياري النخل على الزرع .. أقصيتني . أوه ، كان يحس إحساس الحمامة الوديعة في عشها . ولما فتح الباب ، وأطل فراش المدير العام ، يدعوه إلى سيادته لم يساوره إلاَّ أسف خفيف على أن يغادر دفء العش .. ليس من أجل اختياري ..

- عجيبة غريبة .
- اليوم ، لا يتعامل إلاَّ مع الكبار .
- عاد إلى سابق مجده .
- تغمده الله في واسع جنانه .

نفس الغرفة الأنيقة التي زارها مرتين ، حين كان عضواً في لجنة النشر .

- تفضل استرح .
- أنا؟

تلفت السيد معروف وراءه . رأى الاريكة المخملية الناعمة .

ـ نعم، ومن غيرك؟ ـ وقبل أن يدعه يجلس ـ الحقيقة أن مقالتك أعجبتني.

إنتفت عند السيد معروف أية رغبة في الجلوس.

ـ أية مقالة، يا سيدي؟

ـ هذه.

ـ ليست لدي أية مقالة، يا سيدي.

ـ عن تاريخ النقل.. نسيت؟ وجدتها مطمورة بين أوراقي.

مدَّ السيد معروف رقبته الطويلة مقوسّة، وأطل على الأوراق الممدودة إليه. إرتبك، وشُلّ لسانه. نفس المقالة التي وعد بها الاستاذ عبد الرحيم. تمالك نفسه بعد لحظة ذهول، وهزّ رأسه نافياً.

ـ ليست هذه لي، يا سيدي.

ـ لمن إذاً؟

ـ للاستاذ عبد الرحيم.

ـ ولكنها بخطك.. أنا أعرفه.

ـ إستنسختها فقط.

نظر المدير العام إليه بعينين مستديرتين. ورأى السيد معروف فيهما استغراباً وشكاً وضيقاً. وألقى المدير العام الاوراق أمامه، وتوجه إليه، ملقياً ظهره على متكأ الكرسي.

ـ هل أنت تسخر مني؟

ـ معاذ الله، يا سيدي.

ـ ولِمَ الإنكار إذاً؟

ـ قلت لكم الحقيقة، يا سيدي.

ـ ولكن فيها تعابيرك.. أنا أعرفها.

ـ ليس لي تعابير.. يا سيدي.
ـ فيها روحك الدعابية التي لا تخلو من الذكاء.
ـ لا، يا سيدي. ليست لي أية روح دعابية لا تخلو من ذكاء.
ـ لا تنكر.
ـ أقول الواقع.
ـ أي واقع؟
ـ هو أنني لا أملك أية روح، يا سيدي. ودع عنكم أن تكون دعابية لا تخلو من ذكاء.
ـ إسكت.
ـ تؤمر.
ـ لا يعجبني أن يكون لي مثل هذا الموظف.
ـ أعتذر يا سيدي.
ـ عم تعتذر؟
ـ عن الازعاج، يا سيدي.
ـ عن أنك لا تملك أية روح؟
ـ ربما أملك روحاً، ولكنها روح السيد معروف، كما يسمونني.
ـ ماذا تريد أن تقول في ذلك؟

كان همه في هذه اللحظة أن يتباله وينفِّر المدير العام منه في الحدود التي يتشكك فيها من أن تكون لهذا الأبله الواقف أمامه أية قدرة على تدبيج سطر واحد، ليوقن من أن المقالة ليست له، بل للمميز.

ـ أردت أن أقول.. لست إلاّ نفسي.
ـ نفسك، طبعاً، نفسك.

ولكن الشيطان انزلق على لسانه من حيث لا يدري، فقال:

ـ أقصد لست ثروة.

ـ ثروة؟

ـ نعم ثروة مطمورة أو غير مطمورة.

فتح المدير العام عينيه، وبحلق فيه.

ـ ماذا في ذهنك من أفكار فاسدة؟

ـ ليست لي أفكار على الاطلاق، فاسدة أو غير فاسدة.

ـ إذاً، ما هذه المطمورة وغير المطمورة؟

ـ سمعتكم تستخدمون نفس الكلمة التي دار حولها الجدل عندنا في غرفة الطابعة.

ـ يعني؟

صاح به المدير العام نافد الصبر.

ـ لأنني يا سيدي... (بعد صمت) ولكن إذا كنت تتصورني حقل نفط، فأنا حقل ناضب، يا سيدي.

ـ هل أنت تسخر مني؟

ـ حاشالله. أنا رهن إشارتك وإشارة الاستاذ عبد الرحيم.. ولكني لست مستعداً لأن أُصدَّر إلى الخارج.

ـ ما هذه التصورات الشريرة؟ هل لعب أحد بعقلك؟

ـ لم يلعب يا سيدي. ليس عقلي..

ـ إسكت.

ـ تؤمر، يا سيدي.

بعد صمت:

ـ أنت تافه.

ـ ممكن، يا سيدي.

ـ ومشوش العقل.

ـ ممكن ، يا سيدي ، أقصد . . عقلي . .
ـ فاسد .
ـ نعم ، لا سيدي .
ـ هل أنت تمثل لعبة أمامي؟ دسيسة؟
ـ نعم ، لا يا سيدي .
ـ لا تستخدم كلمة سيدي .
ـ تؤمر ، سيدي .
ـ أوه ، أحمق ، تافه . . أُخرج . . عليك اللعنة .
خارج الغرفة كاد يتعثر بالفرّاش .
ـ هل أعادوك للجنة؟
ـ نعم ، لا يا سيدي .
عاد إلى وكره . . وكر الصقور . صفرت الاصوات وراء طبلة اذنه .
ـ محمرّ مصفرّ .
ـ مخطوف مكسوف .
ـ تلقى إنذاراً نهائياً .
ـ وما الحاجة إلى إنذار نهائي؟
ـ هناك أُناس لا يستجيبون إلاّ للانذار النهائي .
ـ إنا لله وإنا إليه راجعون .
حاول استخدام أصابعه . لم تطاوعه . كانت تدق دقاتها الخاصة ، على مفاتيحها العصبية . أخفاها في بنطلونه ، كأنما يتبرأ من العملية السرية التي كانت تقوم بها خارج إرادته . أعماقه ترتجف . دربزة . نوبة غير متوقعة . كل شيء تجاوز حده انقلب إلى ضده . كنت أُريد أن أقول شيئاً ما ، لا أعرف ما هو . ولكن يملأ صدري ، ويتلجلج في

لساني خانني التعبير، وبحضرة المدير. الله أكبر. ربما اعتبرني بهلولاً. لا، والله، ما أنا ببهلول ولا مخبول ولا دقاق طبول. أريد أن أضع نفسي في موضعها. أين موضعها؟ لا أدري.. أخرج من مصيدة لأدخل في مصيدة. أوه، لماذا فعلت ذلك؟ كأن جنياً داخلي يورطني، ينطق بلسان غير لساني. مصيبة. إبتعدت عني الإبتسامة الحلوة. فلاة إلى غير اللقاء تجاب. وفي النفس حاجات وفيك فطانة. سكوتي بيان عندها وخطاب. وما أنا بالباغي على الحب رشوة ضعف هوى يبغي عليه ثواب، هذا مستمسك آخر، يا جراب!

وفي نهاية الدوام قال له السيد كاظم:

- سنخرج سوية.

أراد ذلك ولم يرد. خاف فلتة اللسان. سيلتزم الصمت، المطبق والمغلق. تركه يتكلم.

- سيد معروف، هل تريد نصيحة؟

يريد أم لا يريد. لا يعرف. وقف صامتاً حائراً، يردد في سره قول الجاحظ: «خيرتني بين العمى والجهل، وما فيها حظ لمختار».

- وإذا أردت فماذا ستقول؟

- لم كل هذا العناء وتعذيب النفس؟

- صحيح. ما هذا الإستقصاء، وما هذا البلاء؟ وما هذا التتبع لغوامض المسألة، والتعرض لدقائق المكروه؟

- أحسنت. فأنت تعرف جوهر القضية.

- لا، السيد الجاحظ يعرفها. هذا ما قاله في الجد والهزل.

- لا، أنا أقول لك جاداً.

- تفضل قل.

- لماذا لا تنضم إلى فرقة الإنشاد مثلي؟

قرقعت عظام رقبته الطويلة حين التفت إلى محدثه بحدة . ولكنه لم يرد عليه . خشي أن يخونه لسانه . واعتبر السيد كاظم السكوت من الرضى ، فطرح صيغته :

ـ ليس من الضروري أن ترفع صوتك. يمكنك أن تحرك شفتيك فقط ، بلا صوت ، وتكسب الأجر . بل ويمكنك أن تنطق بأفكارك المختلفة عن أفكار الأغنية ، ولكن على نمطها . مثلما تفعل أنت الآن . ربما تشتمني في سرك ، وتشك فيَّ ، وتعتبرني معتوهاً . أفكارك الخاصة لك . إحتفظ بها ، ولكن لا تدعها تدور على لسانك .

ـ لسان الافعى .

ـ أنا؟ أشكرك .

ـ لا ، سيد كاظم ، لساني .

ـ لسانك حصانك ، إن صنته صانك .

ـ لينفعك في الآخرة ، حيث تواجه منكراً ونكيراً .

ـ فيك روح النكتة ، يا سيد معروف .

التفت إليه بحدة ، وكأنما جوبه بصفعة .

ـ مصيبة . أنت متوهم أو واهم .

ـ أعذرني

ـ هل تريد أن تدينني؟

ـ لا ، أبداً . أُريد أن أُساعدك . ألا تقبل المساعدة؟

ـ لا أدري ، يا سيد كاظم ، لا أدري . ربما خلقت مداناً . هل يصح ذلك بلغة القانون ، كما يقول السيد هاشم؟ ربما يصح في بعض القوانين . ولكن للغروب قانونه الخاص أيضاً . يزرع الإبتسامات الحلوة والعيون الحدوبة في الشواطيء الفيحاء ، ويورط البشر . يحوّل تفكيرهم ، ويضع المستمسكات الجرمية في جيوب الآخرين .

ـ ها ها ها . . ألم أقل لك أنك صاحب نكتة؟

ـ لا ، أبداً . ولكن شر البلّية ما يضحك ، يا سيد كاظم ، شر البلية ما يضحك .

هزّ السيد كاظم رأسه مبتسماً له بصفاء :

ـ أنت أديب مغمور .

ـ مغمور ، مطمور ، مقبور . . كلها تؤدي إلى الويل والثبور وعظائم الأمور .

إبتسم السيد كاظم محرجاً . قال يجاريه :

ـ لا بد أنك جوعان ، وبطنك تقرقر .

ـ ولسانك يثرثر . . لا ، يا سيد كاظم ، خير لك أن تتلو ، وأنت المسلم ، « يا أيها المدثر ، قم فانذر ، وربَّك ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر ، ولا تمنن تستكثر ، ولربك فاصبر » صدق الله العظيم .

أدار السيد كاظم رأسه بحركة استغراب وإشفاق .

ـ غلبتني على أمري .

ـ غالب ومغلوب . آزم ومأزوم ، منذ الخليقة إلى اليوم .

ـ أها . عرفت تفكيرك الآن .

ـ أبـداً . لست أملـك تفكـيراً . والله العظـيم لا أملـك تفكـيراً . . صدقني . . مصيبة أن لا تصدقني . . مصيبة .

ـ موفق ، يا سيد معروف .

ـ هل تعتبرني موفقاً . لا ، أبداً ! بل ينطبق عليّ قول بعض العلماء حين سئل عن أسوأ الناس حالاً . فقال فلان القائل عند موته : دخلتها جاهلاً ، وأقمت فيها حائراً ، وأُخرجت منها كارهاً . ويقصد الدنيا .

هزّ السيد كاظم رأسه حائراً أيضاً ، وانصرف . وترك السيد

معروف يحسّ كمن نطق بجملة ناقصة لا معنى لها ، لا تشفي غليلاً ، ولا تفي بغرض ، مجرد آهة معلقة في هواء غرفة مخنوق . هل تمادى؟ هل قال غير ما يريد أن يقول؟ لا يعرف! ربما كان على خطأ في أنه لم يقل كلمة واحدة ، لا سلباً ولا إيجاباً ، عن عرض السيد كاظم بالإنضمام إلى فرقة الإنشاد ، بتلك الشروط السخية التي لم يشك السيد معروف في أنها من تأليف السيد كاظم وإخراجه . مصيبة . ما الذي يجعله يتكلم بهذا الشكل؟ ذلك الشيطان المريد الذي يطل على لسانه في تلك اللحظات الحرجة ، ويطلق على لسانه جُملاً طائشة ، مثل زفرات مخنوقة لا تنفس عن همّ يثقل على الصدر ، ولكن تعلن عن وجوده المكلكل هناك . لماذا لا يتجاوب مع الدعوات الكاذبة بدعوات مثلها ، ويترك ما في نفسه لنفسه . ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله . وقبل أن ينعطف إلى زقاق بيته رأى الحاج شكر ، صاحب بيته ، في إنتظاره في بداية الزقاق .

- أهلاً ، أبا صافي .
- بصريح العبارة ، أنت تضطرني إلى أن أجيء إليك كل يوم .
- آسف ، أعتذر . كنت في الدائرة .
- وأنا تركت العلوة ، بصريح العبارة ، ووقفت أنتظرك . لا

أستطيع أن أتفاهم مع النسوان . وأمك عصبية ، وأخاف أن ينزل الماء على عينيها فتعمى .

- شكراً على العواطف الكريمة . يا أبا صافي .
- قلت أنتظر معروف ، لأننا نتفاهم أحسن .
- نتفاهم طبعاً .

ـ إسمع ، يا سيد معروف! بصريح العبارة : هل رأيت احداً يقبل بأذيَّة نفسه ، وبيده .
ـ لا أظن . . ربما لا يوجد مثل هذا الأحمق في الدنيا .
ـ وتريد أن أكون مثل هذا الأحمق ، بصريح العبارة؟
ـ أعوذ بالله ، أستغفر الله .
ـ إذن ، إلى متى أصبر على انخفاض إيجار هذا البيت الواسع؟ وحوله الاسعار تغلي وتفور؟
ـ ولكن راتبي ، يا أبا صافي ، لا يغلي ولا يفور . . بل ولا يحمى . .
ـ هذا لا يهمني ، بصريح العبارة . أُريد حقي .
ـ حقك واظبت على استيفائه أجراً متزايداً منذ عشرين عاماً .
ـ لو أخذته ، لما وقفت كالذليل على باب البيت . وعلى باب أي بيت؟ على باب بيتي الذي بنيته وعمّرته ، بصريح العبارة .
ـ أنت بنيته ، وأنا أعمِّره منذ عشرين عاماً .
ـ ولكنه من أصل الإيجار ، بصريح العبارة .
ـ أضع أنا عشرين ديناراً ، فتحسبها أنت دينارين .
ـ وإذا كنت تريد أن تزوقه أكثر من اللازم ، بصريح العبارة .
ـ كنت أُريد أن أخفي هرمه ، بصريح العبارة ، على حد قولك .
ـ أخرج منه إذاً ، أُريد أن استملكه لابني ، بصريح العبارة .
ـ وأين أذهب أنا بصريح العبارة؟
ـ لا يهمني أين تذهب ، بصريح العبارة .
ـ أشكرك ، يا أبا صافي ، بصريح العبارة .
ـ قصدي لو اهتم كل واحد بهذا وذاك لما وجد وقتاً ليرفع لقمته إلى فمه ، أو لما وجد هذه اللقمة أصلاً ، بصريح العبارة .
ـ ستجد ، ستجد ، وأكثر من لقمة ، بصريح العبارة .

- هل تضحك مني ، بصريح العبارة .
- لا ، أبداً ، بصريح العبارة .
- تحسبني مكدياً بصريح العبارة؟
- لا ، أبداً ، بصريح العبارة .
- إذن أُخرج بصريح العبارة .
- لا أظنني سأخرج بصريح العبارة .
- سأضطرك . إبني ساكن في بيت مؤجر ، بصريح العبارة .
- حاول ذاك ، بصريح العبارة .
- بصريح العبارة . . .
- بصريح العبارة . . .
- بصريح العبارة . . .

كان أحدهما يقاطع الآخر بصريح العبارة ، واختنقا ولم يكملا الجمل ، ولم يتفقا على شيء بصريح العبارة .

دخل السيد معروف بيته محنقاً مربد الوجه . فوقع بصره على وجه محبوبة الزاهي الذي بدا له منقطعاً عن دنياه ، لا مبالياً ، لا يحفل بالآمه ، ولا يتأثر بما يحمل من هموم ، وجهاً يتألق بنور خفي ، يرف فوق الظلام المكلكل على البيت . ثبت معروف عينيه الملتهبتين فيه ، وتزاحمت على لسانه بدايات لا عدّ لها من الحديث ، كلها جارح متفجر فتاك بتلك الطمأنينة العجيبة المرتمية على إطباقة الشفتين ، ونضارة الخدين ، وتوهج اللحظات . إختار السيد معروف أقلها إيلاماً .

- ها؟ لم يبدأ التلفزيون بعد؟
- أي تلفزيون؟

سألت بسهوم خالي البال .

ـ تلفزيون الجيران. أصبحت من عشاق التلفزيون في آخر الزمان.
وما حب الديار شغفن قلبي، ولكن حب من سكن الديارا.

وخُيِّل إلى السيد معروف أن ابتسامة من نوع عجيب التمعت على شفتي محبوبة أُخته، وكأنها تعلن سموها عليه، وسخريتها منه، وانفصالها عنه. أشاحت عنه بوجهها حياء بدا له مفتعلاً أنانياً. وكأنما هو وسيلة أخرى للضحك منه، والترفع عنه. فأراد إيذاءها بسم لسانه:

ـ بدأت تبحثين عن رجل؟ أي رجل يراك في الشارع أو في بيت الجيران.. حتى.. حتى.. أعوذ بالله.

وبدا له أنه رفع صوته في غيظ، وأن أُمه المريضة ستسمعه وتعاتبه، وتقطع عليه حديثه الذي كان يود أن يأتي مفعوله، ويمزق، على الأقل، غلالة الطمأنينة الطفولية التي يتشح بها وجهها.

ـ تكلمي، انطقي.. صفّك العباس؟

تغيّر شيء في وجهها. إنعقد حاجباها. ولاح ظل من العناد القاسي والاستهانة في نظرة عينيها السوداوين المستديرتين، مثل عيون القطط. وازدادت انطباقة شفتيها المتلئتين، مما زاد من سورة الغضب في نفس السيد معروف، فلم يعد يحفل بمقدار ما يسبب لها من إيلام:

ـ أنا لا أسمح لك، لا أسمح لكِ بأن تعبثي بشرف العائلة، الشرف الذي حافظت عليه بالآم معدتي، وتقرح عيني.. لن أسمح لكِ.. سأقتلك.. وأقتل نفسي معك.

أضاف باستشهاد وكأنما وجد من الظلم أن يقتلها وحدها، وأنه في قتلها لها وحدها لا يقيم دليلاً على تضحية أو نكران ذات.

سمع صوت أُمه يرتفع من غرفتها:

ـ مرهونة، هذا صوت معروف؟ ما يزال يتكلم مع صاحب البيت؟ أعطيني يدك.. سأخرج أنا له.

التفت معروف فرأى ظل مرهونة وراء باب موارب، كانت تتنصت إذاً. كان البيت كله ينصت.. أمه.. أخته.. والجيران. لا بأس. ليسمع العالم كلمته النهائية:

ـ إذا خرجت مرة أخرى من البيت كسرت رجلك.. ليس لنا في الدنيا غير الشرف، وتريدين أن تسلبيه منا؟

سقطت غلالة الطمأنينة أخيراً، تلوت قسمات وجهها، وانفجرت تبكي. بكت أمامه بحرقة مخذولة مهزومة مطعونة عاجزة عن الدفاع. وكأنما لتعلن براءتها مما اتهمها به، حتى أنه سرعان ما أشفق عليها، وراح يهدئها.

ـ إسكتي، إسكتي، البكاء لا يؤخر ولا يقدم.

أمه من غرفتها:

ـ مرهونة، هل معروف يتكلم مع محبوبة؟ معروف، لا تتكلم معها. أنا تكلمت اليوم. وعدتني. ووعد الحر دين

وكأنما وجدت محبوبة نفسها محاصرة، فاشتدت نوبة بكائها.

ـ وماذا عملت أنا؟ حرام عليكم، حرام...

وفرت لائذة بغرفتها، وارتطمت في الباب بمرهونة التي كانت تنصت خلفه. وحدثت هزهزة ودبدبة وتلاطم وراء الباب. وعرف السيد معروف أن الاختين قد اشتبكتا هناك في مناوشة، وأن العراك الذي كان يتوقعه منذ زمان بين الاختين قد وقع الآن. وقف حائراً يستمع إلى المهاوشة تتوارد عليه من الباب الموارب، وراحت تختلط بالأنين والشهيق والزفير وتقطع الأنفاس في الصدور. وشعر السيد معروف بأن تاريخاً قديماً من المساءات

والكبت والضيم ، من الحرمان والمناكدة ، والصبر على عجز الآخرين قد انفجر أمامه كالدملة المتقيحة. وقف حائراً لا يعرف ماذا يفعل ، وإلى من ينحاز ، حتى سمع صوت مرهونة المنتحب المتوسل العاجز :

ـ والنبي لم أفتن ، والنبي لم أقل كلمة.

فأشفق على الكبرى ، التعبة في طريق المصير ، وآلمه عجزها وهوانها وسوء طالعها ، فصاح من مكانه :

ـ كفاية ، محبوبة. سأدخل واهريء جلدك.. محبوبة ، كفاية!

تسارعت الكركبة ، وصدرت صيحة غامضة عنيفة ، وانتهى الشجار بخسائر غير معروفة. وبقي صوت الأم يولول في الحجرة إلى يساره ، يريد أن يضمن للأم حصتها من تسوية النزاع. خرجت مرهونة على صوتها محمرة مجزعة الوجه ، منفوشة الشعر ، عرقة الرقبة. ولأول مرة لمح السيد معروف في رقبتها طولاً يضارع طول رقبته ، صفة لعلها تتفشى في هذه العائلة موروثة من أب عن جد. كأن الله لم يمن عليهم بالفقر وضيق ذات اليد فقط ، بل شفعه بطول الرقبة أيضاً. شعر السيد معروف بأن ركبتيه توشكان أن تسيحا. فقد سرت فيهما رجفة مفاجئة لا إرادية ، خشي بعدها أن يسقط ، فهرع إلى حجرته ، وارتمى على سريره. سيمر غروب آخر دون أن يغمر روحه. ستطوف الإبتسامة الحلوة والعينان الحدوبتان على الشاطيء تفتش عنه ولا تراه. وانتفض مطعوناً. شعر بألم شديد في معدته يفوق الألم المعتاد الذي يحمله معه صباح مساء. كانت معدته تتلوى. شفرة. سن كافرة كانت تمزق لحمها. لا بد أنها فارغة ، ولكن الطعام إذا سقط فيها الآن تحول إلى سم زعاف ، صودا كاوية. إحتضن السيد معروف معدته بيده ، من تحت ثيابه ، كما يحتضن

كرشه ، وأحس ببرودة يديه على لحم بطنه الساخن. ماذا يجرى هناك تحت الجلد الأمرط ، واللحم المنخوب؟ ليته يأخذ معدته بين يديه ويتفلاها . يتفحصها مثلما يتفحص قميصاً ظل يتستر به أكثر من أربعين عاماً. لا بد أنه قد تهرّأ الآن من كثرة اللبس ، وتراكم الاوساخ ، وترسب سموم الاطعمة الرخيصة ، كم ثقبٍ فيه الآن ، كم قرحة ، كم حزٍّ ، كم تورُّمٍ ، كم بثرة! كان الألم يتوافد عليه مثل موجات متزايدة ترتفع حدتها حتى تصل إلى الذروة ، فيغمض عينيه ، ويسترخي مستسلماً ، وكأنما ينتظر ملك الموت . إنحدر خط من العرق لجوج لاذع خلف اذنه ، وساح على رقبته ببطء . ظل السيد معروف يتتبع مساره باعصابه طويلاً ، فتجسم له طول الرقبة ، فعجز عن تذكر الكلمات ، ولكنه عرف المعنى : ليت لي رقبة الجمل لأتروى في الكلام قبل أن أطلقه من لساني . فهل طول رقبته مقترن بفضيلة الصبر والتأني هذه؟ قد يكون له شيء من جَلَد الجمل وصبره على عطش الفيافي . ولكن تلك السورات التي ظلت تتفجر فجأة في أعماق قصوى مجهولة من غيهب النفس ، فتورطه . نعم ، تورطه حقاً . وإن كان الاحساس بالتورط لا يلازمه طويلاً ، وسرعان ما ينساه في كابوس ورطة أخرى جديدة. وعاد يتصور ذلك الشيطان المريد الذي يسلبه لسانه ، ويجرى عليه أشياء تسيء علاقته مع الاستاذ عبد الرحيم ، والسيد المدير العام ، والسيد كاظم ، والآن مع أُخته ، أشياء كان يجب أن تبقى في خزانة عقله الباطن ، كما يسميه الاستاذ عبد الرحيم ، وتستر عليه . وتجعله ينصرف إلى الام معدته ، متصيداً الابتسامات الحلوة في بحر الغروب . . لا ، لا ينطبق عليه قول الإمام علي فيما يخص طول الرقبة . . طول لا طائل من ورائه!

ظلت موجات الألم تتوالى خارج إرادته وسيطرته ، تنبع من

مصدر الزوبعة الملتهب داخل معدته. قال لنفسه: ليلة نابغية أخرى. فبتُّ كأني ساورتني ضئيلة من الرقش في أنيابها السمّ ناقع. سم في المعدة، سم في الأمعاء، سم في الفكر، سم حتى مطلع الفجر. سيسمع دقات أُمه ساعة بعد أخرى في دربزتها المثيرة للاعصاب. هاله ما ينتظره من طنوب الليل المشدود في الرواسي من همومه وأفكاره.. لا، لا.. لا أفكار.. يا سيد مختار! يجد رغبة في الذهاب إلى الشاطىء. فلا بد أن ألم المعدة قد رسم خارطته البشرية على وجهه، خارطة الشيطان، فأية ابتسامة حلوة تذوب أو لا تهرب من رؤية خارطة الشيطان على وجه إنسان. ولكن لا بد من اختصار الليل، وتقصير ساعات الاحتضار. قرر الذهاب إلى المقهى. سيستقبل الغروب من خلف الزجاج، وهو قاعد على كرسي مريح. فالجلوس يلملم المعدة، ويطوي تقرحاتها وجراحها، ويسكن الألم إلاّ أن الخطوات الأولى أنبأته بأنه أمام ألم عنيد لا يقهر. كان سن الكافرة ينغرز في معدته مع كل خطوة ويمزقها. إتكأ على الحائط مغالباً الألم، ورفع رأسه إلى فوق استغاثة إلى السماء، فرأى رقعة تعلن عن طبيب للأمراض الداخلية. علق بصره فيها باستشهاد. نوبات الألم تتوالى يمسك بعضها برقاب بعض، فكأنها نوبة ألم واحدة. خُيِّل للسيد معروف أنه لن يفيق منها. ودون تفكير صعد الدرج ساحباً ثقله بذراعه اليمنى المتشبثة بالمسند. بعد الفسحة قابله باب مفتوح يؤدي إلى عيادة طبيب. توقف أمامه متردداً. لا، لا ضرورة. ونكص بعقبيه، وكأنما أفاق من مشي في النوم. هؤلاء اكَّالو السحت، إخوان الجراثيم. لا حاجة إلى عرض آلامي على أُناس غرباء مثلهم. وخُيِّل إليه أن حِدة الألم قد حفت. لا، لا ضرورة على الاطلاق. وهبط درجتين. وتقلقلت معدته. وخزته سن

الكافرة ، عاد فارتقى الدرجتين ثانية . سؤال وجواب . وصفة لتسكين الألم وعسى أن تكرهوا شراً وهو خير لكم . قابلته فسحة عارية ، خالية مثل قلب أم موسى . جشعون هؤلاء الأطباء . وأنانيون . من الخير أن أخرج إلى الشارع ، وأستنشق الهواء ، وسيزول الألم . أستقبل الغروب على كرسي وثير . أشعته الشفافة ، فإنها آس تجس عليلاً . أوه ، أنا عليل . أوه ، وجع . لأُسلم أمري إلى الله . إستقبلته عيادة الطبيب بباب نصف مغلق . سأضيع المشيتين . دفع الباب . كان الطبيب يجمع المجلات المتناثرة على الكراسي . تفضل . أهلاً وسهلاً . كنت سأذهب لزيارة مريض في بيته ، ولكن نقلوه إلى المستشفى . ربما أنا هو ذلك المريض . العيادة فارغة؟ حقك . اليوم عطلتي الخاصة بدلاً من يوم الجمعة ، المخصص للفقراء . وتفضل ، تفضل . سأغسل يدي من الغبار .

كان الطبيب يتكلم وحده منفصلاً عنه ، منحنياً بقامته الطويلة المعوجة قليلاً ، على الكراسي الجلدية المتربة المبعثرة ، مزيلاً بطريقته العفوية هذه بقايا التردد في نفس السيد معروف . في الغرفة مكتب كبير عليه كتب ضخمة ، وعلب أدوية ملونة ، وسماعة ، وبارومتر ، ونفاضة خزفية ضخمة كتب عليها « زنزانو » . وإلى اليسار دولاب زجاجي فيه تمثال من الجبس لإنسان مصغر يكشف عن بطنه وما فيها من معدة ومصارين وفي الدولاب علب أدوية أخرى ، وقوارير ، وكف معروقة من الخزف اللامع . كل شيء يوحي بأن السيد معروف دخل العالم الشاذ الذي كان ينفر منه ، وإذا دخل إليه مع أُمه مضطراً تعجل الخروج منه . وردد في سره لازمته كلما يدخل العيادة . من حق الأطباء أن يكرهوا الأصحاء والموتى . فكلاهما خارج عالمهم الخاص .

جاء الطبيب يمسح يده بفوطة دمشقية زرقاء.

ـ نعم، تفضل. أنا كلي آذان الآن.

نظر السيد معروف إلى وجه الطبيب المستطيل القوي الفكين ذي الجبهة العريضة السارحة، والأنف البارز، والتكشيرة الطبيعية الكاشفة عن أسنان كبيرة، والرقبة الطويلة الشبيهة برقبته من حيث الطول، ولكنها أمتن وأقوى ككل شيء في صاحب التكشيرة الجالس أمامه ماداً ذراعيه قليلاً على المكتب، يلتهمه، دون كلفة، بعينيه الجسورتين.

ـ دكتور، معدتي. تتمزق.. كأنني بلعت سناً كافرة.

ـ ها، ها، ها! لطيف. سن كافرة! تعبير موفق! ربما ما زالت سن الكافرة في الاستعمال اليوم. متى تحس بالالم عادة، قبل الأكل أو بعد الأكل.

ـ قبل الأكل وبعد الأكل.

ـ هل له علاقة بما تتناوله من طعام؟

ـ لا، لا أظن.

ـ بالفرح والحزن؟

ـ لا أدري.. لا أظن أنني فرحت في حياتي فرحاً حقيقياً.. ربما...

ـ ربما، ماذا..

ـ لا شيء، تذكرت لحظة فرح خاطفة، أطلت عليَّ.. ولكنها لحظة فرح عابرة لا يقاس عليها.

ـ هل خفّ الألم عند ذلك؟

ـ لا أدري.. كان تحولاً فكرياً أنساني نفسي.

ـ متى كان ذلك؟

أبطأ السيد معروف بالاجابة، وأطرق برأسه، ثم قال قبل أن يرفعه:

- أعذرني.. إنس ما يخص التحول المزعوم.. زلة لسان.. كانت لحظة خاصة لا تكرر ولا يقاس عليها، فلا تبن عليها أحكاماً.. صحوة من الألم خاطفة. ولكن الألم في العادة يلازمني صباح مساء. يخف أحياناً، فأسهو عنه، وأغرق في الآم أخرى أشد لا تتعلق بمعدتي.

- إسمح لي: هل أنت تدخن، تشرب الخمرة؟

رفع السيد معروف رأسه وقال بصراحة أمينة:

- جربت في الحقيقة. كان يعجبني أن أضيف إلى حياتي ما يجد فيه بعض الناس نشوة، أو ما يظنونه نشوة. دخان السيكارة كان يجعل معدتي تتقلب، كما تتقلب حمم داخل الأرض. أما الخمرة فقد عاقرتها، كما يقولون مرة واحدة، ففعلت بي الأفاعيل، فآمنت بأبيات المتنبي.

- لطيف! ماذا يقول المتنبي؟ هل تحفظ الأبيات؟ أرجوك ربما أستفيد منها طبياً.

- أبيات لطيفة يقول فيها:

وجدت المدامة غلابة تهيج للقلب أشواقه

- وللمعدة قروحها بالطبع.

تسيء من المرء تأديبه ولكن تحسن أخلاقه

- يصير خشناً... ولكنه أريحيّ

وأنفس ما للفتى لبه وذو اللب يكره إنفاقه

- ومع ذلك فذوو الالباب الذين يكرهون إنفاقها في نقصان مع مرور الزمن.
- ربما ذلك داء العصر الذي نسمع عنه كثيراً.
- سنة التطور.
- والبيت الأخير هو الذي كرهني بها.

وقد مُتُّ امسِ بها موتة ولا يشتهي الموت من ذاقه.

رائع وفلسفي. في الحقيقة الخمرة والتدخين من العوامل المساعدة. ولكن أمراض المعدة، بشكل عام، مرتبطة بالاعصاب تفضل، تمدد.

ولما انتهى من جس بطنه، وعرف مواقع الألم، سأله، وهو يتجه إلى المغسلة ليغسل يديه ثانية:

- عند مَنْ كنت تعالج؟

تردد السيد معروف في الجواب. هل يقول له اسم الطبيب الذي يعالج أُمه. ولكن ذلك مختص بامراض القلب. كره التردد، وقال بصراحة:

- لم يكن لي ترف استشارة الطبيب.
- ها، تعتبرها ترفاً؟ من الكماليات كماء الكولونيا؟

وضحك الطبيب ضحكة صافية، وهو يمسح يديه بالفوطة ويتجه نحوه.

- أقصد الميزانية لا تساعد.
- نعم، الميزانية، بالضبط. والمصيبة أن العلل تلتصق بضعاف الميزانية.

خجل السيد معروف أن يكشف أوراقه، فلربما يتصور الطبيب أنه من مراجعي يوم الجمعة، وقد أخطأ اليوم، وجاء يستشيره مجاناً.

قال مصححاً الانطباع:

- الحقيقة أن أُمي تستهلك كل الفلوس التي يمكن أن تخصص لهذا الباب.

- مريضة مزمنة؟

- تقريباً.

- هناك أمراض يمكن أن تعتبرها ملازمة للشيخوخة، ولكن لا توجد أمراض يحق لك أن تعتبرها ملازمة للشباب.

إعتبر السيد معروف الكلام موجهاً له، فقال:

- لست شاباً.

- وحتى الكهولة. لست أكبر سناً مني، كما أرى.

- الأعمار بيد الله.

- حكمة يرددها الناس تلقائياً. في الحقيقة انهم ينسبون إلى الله مسائل تخص عجزهم.

لم يرق للسيد معروف هذا المنوال من الحديث قال بصراحة:

- هل هذه محاكمة أم جلسة سفسطائية؟

- نهايتها.

وانكمش الطبيب في قوقعة رسمياته:

- الاسم الكريم؟

- معروف عامر الدواليبي.

- ماذا تشتغل، يا سيد معروف؟

- كاتب طابعة حالياً.

- حالياً؟ ماذا كنت تشتغل من قبل؟

- كاتب تحرير.

- ولماذا غيرت عملك الأصلي؟

- قضية طويلة.
- يخيل اليَّ أن عملك لا يناسبك.. تبلع الكاربون. أليس كذلك؟
- ليس الكاربون وحده.
- آها. فهمت. غيره، إذاً.
بسط السيد معروف ذراعيه ببداهة:
- ومن أين أعيش إذاً؟
أُحرج الطبيب. عبث في السماعة. ونقل علبة دواء إلى موضع آخر.
- أحسنت. هذا سؤال مطروح منذ بدء الخليقة: من أين أعيش؟ - وأطرق الطبيب وصمت مفكراً ثم قال - يؤسفني أن الأطباء لا يستطيعون الإجابة عن ذلك. ولكن ألا توجد إمكانية للإنتقال إلى عمل آخر؟
- لا، هذا آخر معقل.
- لطيف. فهمت.
- أرجو ألا تؤول الأحاديث.
- لا، قطعاً.. تريد أن تقول؟
- لا أُريد أن أقول شيئاً. هذه هي المسألة. لا أُريد أن أقول شيئاً. يحسبه الجاهل ما لم يعلم شيخاً على كرسيه معمماً. أبداً، والله، أنا حاسر الرأس.
- هذا رأيك. من حقك أن تلبس عمامة ولا تلبسها.
- لا، ليس لي رأي.
- في أي شيء؟
- البتة، وعلى الاطلاق.
- حتى معدتك؟

ـ لعنها الله ، وهل يهمها رأيي؟
ـ يهمها بالتأكيد.
ـ لو كان يهمها رأيي لسمحت لي بأن أتذوق أشياء كثيرة أُحبها.
ـ معدتك تاريخك.
ـ تاريخي؟ وهل لي تاريخ؟ هل أنا محقق أم طبيب؟
ـ العفو ، العفو. يمكنك أن تسكت ، مثلما يمكنك أن تتكلم. لكن الكلام ، بشكل عام ، أروح من السكوت ، من الناحية السايكولوجية ، على الأقل.

سكت السيد معروف قليلاً ، ثم قال:

ـ ربما أنت محق. حين أنفّس عما في صدري أرى ابتسامات حلوة وعيوناً حدوبة. ولكن ذلك يحدث بشكل عفوي ، ومفاجيء ويسبب لي مشاكل أنا في غنى عنها ، فتتحول رؤياي إلى مستمسك جرمي.
ـ ها ها ها.. مستمسك جرمي.. لطيف ، لطيف.
ـ وقد نُثِرت حوالي مستمسكات جرمية كالألغام. هل قرأت كتاب «يوميات نائب في الأرياف»؟ يقول النائب إنه نصب مصائد الفئران حول سريره في الريف ، كما تنصب الألغام الواقية حول سفينة من سفن الصليب الأحمر.. أنا أيضاً ، ولكن لا أنصب الغاماً واقية ، بل الغاماً ناسفة.
ـ هل تقرأ كتباً كثيرة؟
ـ سابقاً قرأت الكثير.
ـ والآن؟
ـ لا.
ـ فقدت الرغبة؟
ـ في كل شيء.

ـ وهل ذلك بسبب وجع المعدة؟

ـ لا أعرف، ولكنني إنسان فقد الطموح منذ زمان.

ـ لماذا؟

ـ لا أدري. عندما كنت كاتب تحرير حاولت أن أفعل شيئاً صغيراً أقدر عليه، بنتيجة قراءاتي الكثيرة، وهو تشذيب لغة المكاتبات الرسمية. ولكنني صُدِدتُ أشنع صد، ونقلوني من كاتب تحرير إلى مجرد كاتب طابعة أقوم بعمل روتيني ممل.. وحتى هذا بدأ يتزعزع أمام عيني.

ـ سميته آخر معقل.

ـ نعم، نعم، آخر معقل.

ـ كيف تسميه إذاً، إذا كنت لا تستطيع أن تدافع عن نفسك؟

ـ أقصد آخر ملجأ، وبعده أرض الله الواسعة. الغروب. الشاطىء. والإبتسامات الحلوة العابرة.

ـ لطيف.

حدَّق السيد معروف في الطبيب أمامه، وقال:

ـ ها ها ها.. لطيف.

كان الطبيب يضحك ضحكات صافية رنانة خُيِّل للسيد معروف أنها نابعة من أعماق قصوى لا يستطيع النفاذ إليها. وكانت الإبتسامة العريضة بعدها تُلوِّن كل ملامح الطبيب البدوية الخشنة على ما فيها من طفولية وعذوبة وعفوية. عقد الطبيب ما بين حاجبيه، وسلَّط عليه ألق عينيه الـ.. الـ.. حدوبتين وقال وكأنه يبدأ بداية أخرى:

ـ كيف وجع معدتك الآن؟

سكت السيد معروف ، وكأنه يبحث عن بقايا الألم الذي جاء إلى الطبيب بسببه .

ـ يبدو أنه خف .

ـ شفت؟ التنفيس نوع من العلاج الطبي . ولكن من يسمع من يقرأ؟

ـ ستعالجني بالتنفيس؟

ضحك الطبيب ضحكته الصافية .

ـ لا أنا أبحث عن الأوليات .

ـ لتصوغ المستمسك الجرمي؟

ـ هل يصح أن يُقال المستمسك الجرمي ، بدلاً من ذلك؟ لقد هبطت عليَّ ، يا سيد معروف ، خالي اليدين ، لا كشوف ولا تحاليل ، ولا تقارير عن تاريخ المرض . فكيف تريدني أن أتصرف؟ أصف لك مسكناً أو دواء يساعد على الهضم ، وأدعك تنصرف؟ لا ، لا أُحب أن أفعل شيئاً من هذا مع أي شخص ، لا سيما مع شخص مثلك . طبعاً ، أنا لا أطمع في أن أحل مشكلتك الخاصة حلاً جذرياً ، كما يقولون في هذه الأيام ، وحتى حلاً شاملاً . يأتيني إلى عيادتي المتواضعة هذه كثيرون من أمثال السيد معروف بمعد موجعة أو بغيرها من أمراض الأعصاب المسحوقة والميزانيات الضعيفة . فأصف لهم هذا الدواء أو ذاك ، ويفيدهم بدرجات متفاوتة . ولكن يبقى ما لا أستطيع تغييره بمفردي .

ـ الأسباب الموجبة؟

ـ لطيف! الأسباب الموجبة . أنت ذكي ، ولا تخلو من روح النكتة .

ـ أرجوك .

ـ خفيف الظل ، كما يقول أهل مصر .

ـ إستعملت هذه الكلمة في إحدى المكاتبات الرسمية فرفضوها وقرَّعوني .
ـ ها ها ها ، لطيف . ماذا كتبت؟
ـ كتبت : عربات الركوب الخفيفة الظل تزاحم باصاتنا في بعض الخطوط . فقد كانت تحمل الركاب بالنفرات . إتهموني بمحاباة الجهة المزاحمة .
ـ ها ها ها ، لطيف .
ـ لطف منك أن تصفني باللطف ، يا دكتور .
ـ ألا تساعدك روح النكتة على مقارعة المنغصات؟
ـ بالعكس ، تورطني .
ـ عند ثقال الظل؟
ـ ومن لا ظل له على الاطلاق .
ـ لطيف .
ـ أشكر حسن ظنك .
ـ المهم في مرض المعدة هو ألاّ تهون عزيمة المريض ـ قال الطبيب بجدية تامة ـ عزيمته في أن يجد في حياته ما يصرفه عن أوجاع المعدة .
ـ أين يجده على الشاطىء؟
ـ الهواء الطلق مفيد أيضاً ، والتمشي .
ـ إبتسامة حلوة ، وعينان حدوبتان؟
ـ ها ها . وهذه أيضاً . كل ما يبعث على الارتياح وهدوء البال . العزيمة ، يا سيد معروف ، العزيمة . وإذا ذَبُلت هذه العزيمة أو نحلت ذبُل الجسم كله ، وتكالبت الأمراض عليه . روح المقاومة ـ وضمّ الطبيب قبضة يده ، وأرسل ذراعه الضخمة إلى الأمام بحركة

عناد - رمز العافية الروحية. والعافية الروحية تنعكس بالتأكيد على صحة البدن.

- العقل السليم في الجسم السليم؟

- بالتأكيد. ولم لا؟ روح المقاومة توفر المناعة حتى للأعضاء العليلة، فتقارع المرض.

- وتغلق الصيدليات. ألا يهاجمك أصحاب الصيدليات على بث روح المقاومة.

- هاجمني الأطباء، حين خصصت يوم الجمعة لمعالجة ذوي الدخل المحدود مجاناً.. نفس النظرية.

قال السيد معروف ما كان يدور بخلده:

- من حق الأطباء والصيادلة أن يكرهوا الأصحاء والموتى.

- ها ها ها. لطيف.

- مثلما من حق الاستاذ عبد الرحيم أن يكره القواعد والصرف.

- مَنْ الاستاذ عبد الرحيم هذا؟

إنتفض السيد معروف على هذا الأسم يتردد على لسان آخر. فقال متراجعاً:

- لا أدري. هل نطقت بهذا الاسم؟ العفو. كنت أهذي. إنس الموضوع.

- حسناً. نسيته. إعتبره منسياً.

- ولكم في النسيان حياة يا ذوي الألباب.

- في القصاص، يا سيد معروف.

- المعنى في بطن الشاعر.. أقصد نسيان الآلام.

- وحتى الشدة نافعة أحياناً. اشتدي، أزمة، تنفرجي..

هذا وان الشد فاشتدي زيم　　　قد لفها الليل بسوّاق حُطَم

ليس براعي إبـــل ولا غنم   ولا بجزار عـــلى ظهر وَضَم

- من زيم هذه؟
- ناقة.. ولكن بيد سائق شديد المراس.
- إذاً، ستنفرج بالتأكيد.
- والألغام الناسفة؟
- العزيمة، العزيمة، يا سيد معروف.
- على رأسي. من أية صيدلية أشتريها؟
- شيء يُحضَّر في مختبر النفس.
- ويصدر إلى الخارج؟
- لا يصدر.
- لا يباع ولا يشترى ولا يصدر؟ هذا أنا، إذاً. شكراً، لك، يا دكتور. أهديتني إلى طريق العزيمة، مهما تنطوي عليه من مستمسك جرمي، أو أي لغم من الألغام الناسفة.
- الأساس هو الثقة بالنفس.
- والعزيمة يمكن أن تُحضَّر في مختبر ذوي الميزانيات الضعيفة أيضاً.
- بالتأكيد.
- إسمح لي أن أُقبلك.
- ها ها ها. تفضل. إستفد من كل الامكانيات المتوفرة لك. الحياة لا توهب إلاَّ مرة واحدة...
- شكراً، يا سيد موفق.
- إسمي طاهر توفيق.
- شكراً، يا دكتور طاهر.
- لا شكر على واجب. ومَنْ موفق هذا؟
- شخص من عباد الله.

- الصالحين أو غير الصالحين؟
- لا أدري حتى الآن. كم معاينتكم، يا دكتور طاهر؟
- مع القبلة أو بدونها؟
- بها أو بغيرها.
- لا شيء.. أعتبره حديثاً ودياً.
- وكيف أرد لك الفضل؟
- سلِّم لي على موفق.
- أها شكراً. إن الطيور على أشكالها تقع.

شيعته ضحكة الطبيب الرنانة. هبط الدرج على عجل. تلفت قبل أن ينزل إلى الشارع. أعوج أعرج أهوج، بالمستمسكات الجرمية مدجج، يُهزَم ولا يحرج. ما هو؟ حظي الأفلج. أعوذ بالله، بصريح العبارة، أعوذ بالله. كأن الدكتور طاهر توفيق أعد العدة، وشحذ اللسان لاستقبالي. وأنا، أيضاً، عفت جميع الأطباء، وطرقت بابه! وافق شنٌ طبقة، تحب رجلي الفلقة، والليل يغزو مَلَقه. ويكفن شاطيء قلبي بالذنوب. وفي الماء عيون الذئاب. وفي المعدة شفرة سكين، وفي القلب لوعة وحنين. أين أنت، يا ذات الابتسامة الحلوة والعينين الحدوبتين؟ اليوم موعدكم فأين الموعد؟ هيهات ليس.. ماذا ليس؟ نسيت البيت. كهولة! كهول تساموا للعلى وشباب. مرة أخرى قافية المتنبي؟ ولكن يا سيد معروف، وفي الجسم نفسٌ لا تشيب بشيبه، ولو أنَّ ما في الوجه منه حراب.. أوه، نعم، بلى.. كأن المتنبي المنكود يقصدني مع ذات الابتسامة الحلوة والعينين الحدوبتين، وللخلود مني ساعة ثم بيننا فلاة إلى غير اللقاء تجاب. ستسمع رسيس الحب في قلبي. إنتهى. قُضِيَ الأمر، ولات حين رجوع! لقد تصبّرت حتى لات مصطبر فالآن أقحم حتى لات مقتحم.

أين؟ ليس لي مقتحم غير المقهى. وأغلقت الأبواب وقالت هيت لك.
إستقر السيد معروف على مقعده في مقهاه. وتأوه ماسكاً معدته التي
ما زالت تتمزق في جوفه. نسي حتى أن يسأل الدكتور طاهر أن
يعطيه مهدئاً أو مهضماً أو أي شيء يجعله يفرغ معدته مزقاً دامية. ما
أنت إلاّ معدة دميت، وفي سبيل الله ما لقيت. العزيمة، يا سيد
معروف، العزيمة. فِلمٌ جيد من تمثيل السيدة فاطمة رشدي، أيام كان
يغشى دور السينما، أيام كانت تتملكه الرغبة في الفرار من جلده،
فيخرج إلى الشارع، ويصطدم بالروائح والصدور والاكتاف، ويشبع
غباراً وزفرات وحسرات. ثم يعود إلى بيته مكللاً بخيبة الهزيمة،
ويدفن رأسه بين دفتي كتاب، ويحلم بأشياء جديدة، مدن، جزر،
بحار، حقائق، شعوب، عوالم فاتنة. العزيمة، يا سيد معروف،
العزيمة. وإذا ذبلت، ذبل الجسم، وقصرت الرقبة الطويلة
وانقصفت. الله يقصف ظهرك، يا استاذ رحيم! ورطتني! عفواً! هل
نطقت بهذا الاسم؟ إبتسامة حلوة وعينان حدوبتان. رهبان مدين
والذين عهدتهم يبكون من حذر العذاب قعوداً. لو يسمعون كما
سمعت حديثها.. ماذا سمعت؟ لم أسمع شيئاً. مرت كالطيف. دون
أن تنبس ببنت شفة. راح، حظي العاثر. زال. لاحقه الآن غباراً
تذروه الرياح؟ العزيمة، يا سيد معروف، العزيمة. شيء يحضر في
مختبر النفس. تنُّور في جوفي وليس مختبراً. تنور الزيات. من زيات
إلى وزير، إلى قاتل إلى قتيل. شكراً لك، يا دكتور طاهر. بثثت
فيّ العزيمة، أو بالأحرى نبهتني إلى نفسي. الثقة في النفس. لست
أعور ولا أحول ولا أعرج ولا مشطور الشفتين. وأسود مشفره نصفه
يقال له أنت بدر الدجى. والحياة، يا سيد معروف، توهب مرة
واحدة. سمعت، بذلك، سمعت. بابتسامة حلوة وعينين حدوبتين

أو بغيرها وبخلافها . مع قبلة أو بغير قبلة ، بأم عمياء مترملة ، أو بأم مفتحة العينين يكلكل عليها زوجها . بأخت أو بغير أخت ، عانس أو متزوجة . تريدين رجلاً؟ لماذا لا تريد؟ من يدري ماذا في قلبها؟ ربما تحن إليه؟ إلى موفق . تقول بصريح العبارة أو بملتبس العبارة ، أو بغير عبارة على الاطلاق : كسرتم رقبتي . لماذا رفضت موفق ، يا أمي؟ وهل أنا مذنبة لأن أحداً لم يأت لخطبة مرهونة؟ إنتظري حتى تتزوج أُختك الكبرى . ومتى تتزوج أُختي الكبرى؟ يوم ينفخ في الصور؟ الشرف ، يا محبوبة ، الشرف . لا نملك في الدنيا غير الشرف ، وتريدين أن تسلبيه منا؟ خطبة عصماء ، بتراء . كيف افلتت هذه الجملة مني؟ الشرف . إبتسامة حلوة ، وعينان حدوبتان . لن أنضم إلى فرقة الإنشاد ، مهما كلف الأمر . وفي النفس حاجات ، وفيك فطانة . أبداً ، لا فطانة . سكوتي بيان عندها وخطاب . لا يريد السيد كاظم أي بيان . يمكنك أن تحرك شفتيك فقط ، بلا صوت ، وتكسب الأجرين . حتى شفتي لا يمكن أن تتحرك . يمكن أن تتحرك في البداية ، ثم تشذ عن السوط ، أقصد عن الخط ، أقصد . . لا أقصد شيئاً . . لا تتحرك وكفى . . المؤمنين القتال . . قتال صامت أو صاخب ، معلن أو غير معلن ، خلف منضدة تحرر فيها الكتب المشذبة المنقحة ، أو خلف آلة كاتبة قديمة تستنسخ الكتب الركيكة العبارة ، الممسوحة المعاني والتعابير ، بأخطاء نحوية أو غيرها . ما هذه العداوة ، استاذ عبد الرحيم ، ما هذه العداوة؟ هل تعرف ما نسمي بلغة التراث؟ كتاب الدواوين .نعم ، نحن كتاب الدواوين ، يا استاذ عبد الرحيم . وماذا يبتغي الكُتَّاب مني وقد جاوزت حد الأربعين؟ والاستاذ فخر اللغة العربية أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، حرر ابتسامة . . أقصد

رسالة حلوة . . أقصد ممتازة في ذم أخلاق الكتاب ، المحررين حالياً ، من أمثالي وأمثالك ، نعتهم فيها بأشنع النعوت ، وشبههم بالكلاب الهَرِمة التي يمر بها أصناف الناس ، فلا تحرك ساكناً ، وإذا مرّ بها كلب من أمثالها ، حتى ولو كان هرماً مثلي ، نهضت ، ولا تستقر حتى تفتك به . فلماذا ، يا استاذ عبد الرحيم ، لماذا ، يا أيها الكلب الهرم؟ لماذا تريد أن تقتلني؟ جعلت فداك؟ خيرتني بين الجهل والعمى ، وما فيهما حظ لمختار . أوه ، يا أسد . إنَّ البغي مرتعه وخيم ، والظلم يصرع أهله . هل كتب علينا أن نكون من أولئك القوم الذين شتمهم أحد أبنائهم حين قال : كانوا أقل الناس ذنوباً إلى أعدائهم ، وأكثرهم جرماً إلى أصدقائهم؟ وهل كنا أصدقاء يوماً ما؟ لم أرد أن ازاحمك ، والله العظيم ، لم أرد قسماً بالله . كنت أُريد أن أقوم بشيء ما . لماذا قرأت الكتب ، وصاحبت موسى بن نصير وطارق بن زياد في غزواتهما الموفقة؟ والجاحظ في رسائله ومحاسنه وأضداده ، ورحلته السندبادية في عالم البخلاء؟ وعرفت منه فخر السودان على البيضان والجواري على الغلمان ، ودرست معه خصال البغال ، وعرفت أنهم يشبهون الأسد بالبغل ، إذا كان الأسد تامَّ الخلق . فهل ستزعل مني إذْ أُشبهك بالبغل ، يا أسد؟ أو بالأسد ، يا بغل؟ وحين عدد الله أصناف نعمه ، كما يروي الجاحظ ، قال في القرآن : . . « والخيل والبغال والحمير » . وكان عليّ أن أتمسك بذيل البغل ، باعتباره من نعم الله ، . . ولكنني تهاونت وتماديت ، ولم أدرِ أنني سأبيع البغل حين أبدأ بالسرج ، وأنحدر إلى كاتب طابعة حين أشطب على كلمة « المومأ إليه » . ولكن المكروه قد وقع ، والناس في صعود ونزول ، ونشاط وخمول . والاستاذ طارق بن زياد ، بعد غزواته الموفقة ، مات مغموراً مطموراً ، وصار نسياً منسياً ، ولم

يذكره أحد من المؤرخين. والاستاذ موسى بن نصير أُهين وعُذِّب، وجُرِّد من أمواله المنقولة وغير المنقولة.. ومنها بغال كثيرة، بالتأكيد ولو كانت له آلة طابعة قديمة لصودرت أيضاً، ولما وجد شيئاً يدق عليه كتابنا وكتابكم بعد وقوع المحذور: إسكت، يا سيد معروف. قدك أتئب، أربيت في الغلواء، كم تعذلون وأنتم سجرائي. سجراء أو غير سجراء، في كرة القدم أو في فرقة الإنشاد. كلها محسوبة ومكتوبة، وفي اللوح المرقوم. بتفكير وبدون تفكير، وإلى الله المصير. سواء أكان مصير طارق بن زياد أو موسى بن نصير. فالحياة توهب مرة واحدة، بعيش مرفه أو بعيش عسير، على أن لا تكون حياة حمير.

وبهذا التعميم نهض السيد معروف من مقعده، وتقلقلت مصارينه من الرجة، وآلمته. يجب أن يذهب إلى الدكتور طاهر مرة أخرى ليكتب له دواء مسكناً. كم هي الساعة الآن؟ الغروب على جزر الكناري.

إستقبلته ساعة أُمه بدقات تسع. البيت ساكن سكون الأضرحة، في الليل، خافت الضوء، عفن الاحشاء، تغني الصراصير في زوايا الظلمة، وتتنقل العقارب بحرية من ثقب إلى ثقب. خرجت مرهونة من غرفتها. سمعت الأم وقع خطواته. عندما تضعف حاسة تعوّض الأخريات عما خسرته الحاسة المتضررة.

- معروف، هذا أنت؟
- نعم، أنا، يا أُمي؟

رفعت وجهها باتجاه الصوت، أو باتجاه الرائحة. وهيأت يدها لتتلمسه. طوال حياتها، ولا سيما الفترة الأخيرة منها، تتلمسه، وكأنها تشك في وجوده، وتريد أن تتأكد من ذلك باللمس.

- أين كنت؟
- حاولت ، يا أُمي ، أن أبحر على باخرة من ضوء الغروب .
- وتتركنا؟
- أبداً . تركت الباخرة مذعوراً من فراقكم . هل تعرفين كافور الأخشيدي ، يا أُمي؟
- كافر؟
- كافور .
- من محلتنا؟
- لا . يدبِّر الملكَ من مصر إلى عدن ، إلى العراق فأرض الروم فالنوب . قالَ عنه أحد شعراء العراق القلقين :

وماكنتلولاأنتإلاّمهاجراً لـه كـل يوم بلـدة وصحـاب
ولكنـك الـدنيـا إليَّ حبيبـة فما عنك لي إلا إليك ذهاب

- فدوه لهذا اللسان الحلو .
- أين أذهب ، يا أُمي ، وقد ربطني كافور الأخشيدي . أرجوك ، يا أمي ، لا تؤولي الحديث . أقصد هذه الوجوه الحلوة .

ومرر ذراعه على أُمه وأُخته مرهونة التي كانت تنصت عند الباب . فنكست الأخت رأسها . وكأنما تشك بصحة انطباق وصفه على وجهها . تأثرت الأم وتلمست الفراش حولها ، وقالت :
- من لنا في الدنيا غيرك؟
- ومن لي أنا؟ أنا كأبي الطيب ، أغرب وأشرق ، ولكن سأعود إلى النعمانية ، بالتأكيد .
- ولماذا إلى النعمانية؟ هل عندك حبيبة هناك؟
- عندي . إسمها منية .

ونهض من حافة السرير الذي تتكور عليه أُمه. مرَّ بمرهونة ورأى عينيها تلمعان ببريق حبيس. همّ أن يسألها قبل أن تبادره بالسؤال عن عشائه: هل محبوبة هنا، أم تتفرج على التلفزيون عند الجيران؟ إلاَّ أنه سمع حركة في الحجرة المجاورة، واعتذر في سره للخيبة اللئيمة. هل يطرق الباب، ويعتذر لها؟ أنا آسف، يا محبوبة، ظلمتك! لم أرد أن أهينك، لم أرد أن أنال من شرفك وبراءتك. ولكنه فضل أن يناجيها في سره.

ـ معروف...

ـ لا، أريد أن تطرقي لي طاسة لبن.

وسمع حركة مرهونة الصاخبة وراءه، تستجيب لطلبه. هذا بيته حقاً، فأين يذهب منه؟ وإلى أين؟

شرب طاسة اللبن، وهو واقف قرب المرآة. كان وجهه صافياً يكاد يخلو من الظلال، فيه صلابة وإصرار وحمية. كأن العزيمة أخذت تتكون في قسماته المكتسبة تناسقاً يخفي عيب رقبته. وكانت النار قد خمدت في معدته، وساد الهدوء خرائب الألم فيها. كان يحس برواق غريب، وكأنه يوشك أن يقبل على عمل مريح للضمير. كأنما وضع نفسه، لأول مرة، في قلب الصورة، حتى عاتب نفسه مرة على اغتيابه لأخته محبوبة. لماذا، لماذا تغتابها؟ هل لتوهم نفسك بأنك لم تشترك في تقرير مصيرها التعس؟ تلقي اللوم كله على أُمك، لتبرىء نفسك من أي ذنب. كأنك لم تكن سلبياً جداً، وجامداً، حين جاءت أم موفق لتخطبها منك، أنت أخوها الكبير، رأس العائلة، وأحلتها إلى أُمك.. تبرأت رأساً: أنا لا أعرف، سألبس ما تفصله أُمي. وكأنك تريد أن تخفي موقفك الصريح من موفق، موقفك الخائف الأناني المتردد. سياسي! وأي مستقبل للسياسي في

هذا البلد! وحكمت على مستقبل أُختك بالسجن إلى أبد غير مسمى، بمستمسك جرمي وآه. سياسي! ولو كان الأمر قد تم، ومنحت لنفسك بعض الثقة، وأعطيت لأختك حرية الأختيار لكنت الآن خالاً، على الأقل، لـ.. لـ.. كم قال؟ لأربعة، أو خمسة، أبناء أُختي، الله يخليهم. ناشف، يا سيد معروف، ناشف.. خشمك أو أنفك ناشف. قلبك صخر جلمود، ما حنّ عليّ. الحنين إلى... ولكنك الدنيا عليّ عزيزة.. ذهاب وإياب.. بره بار.. ونهايتها الشيخوخة واللحاق بخبر كان. كان يكون فهو كائن. هل أنت كائن، يا سيد معروف؟ ومن أين جاءتك هذه الكينونة؟ العدم استاذ عبد الرحيم لن أكتب لك مقالاً، حتى عن العدم. إنعدم فهو منعدم. معدوم أحسن، أكثر استخداماً.. من فضلك أُسكت، خير لك أن تسكت، أن تنجب، أن تنكب، أن تفرغ معدتك من عصاراتها الكاوية، إذا أردت أن تأكل خبزتك، أو طاسة لبنك، جامدة أو مطروقة بأوامر الاستاذ عبد الرحيم، أو بارشادات السيد هاشم.. فعاليات تذيب عنكم الشحم. أين الشحم؟ بطني على ظهري، أو ظهري على بطني. ليس كمن رأى كرشاً يتبعه رجل أو بغل أو أسد أو أية نعمة من نعم الله، وأي كائن من خلقه. كان يكون فهو كائن. ستكون مجنوناً، ستكون، يا ريت أن تكون، لا أن تُكان. هل يصح أن يصاغ المبني المجهول من كان؟ لا، لا يجوز، لأنها فعل ناقص. ولكنها تكون كاملة أيضاً. لنسأل الاستاذ الزمخشري. الظريف الخفيف الظل. يعجبني أن أعرف. واتجه السيد معروف إلى زاوية تتراكم الكتب فيها. عليها طبقة كثيفة ك و ب: كوب خمر. يا ريت! قاتل الله المعدة. ك و ح: كاوح. لا أعرف. ك و ر: كير، موقد النار. كلنا لها. ك و ز: أغترفه بالكوز. ك و س. كوّسه

الله بالنار . هل رأيت؟ أينما وليت رأيت النار ، حتى قبل أن تصل إلى النار الأصلية ، نار القيامة . تمرين إجباري! فعاليات . ك و ف . ك و م . ك و ن . هذه هي كانت الكائنة والكوائن . قال سويد : فلما التقينا وكان الجلاد ، أحبوا الحياة فولوا شلالاً . هروباً من الفعاليات ، أو أي شيء آخر قاصم للظهر . « وأخبرني بالكائن عندك » لا ، لن أخبرك . لا أريد مستمسكات جرمية أخرى . « كون الله العالم » أحدثه فتكون . هذا من حقه كخالق ، لا أحد ينازعه في ذلك . وتقول أقفرت الديار وكأن ما يسكنها أحد ، أي لم يكن بها . مثل الشاطىء . . أقفر من ذات الإبتسامات الحلوة ، والعينين الحدوبتين . . « وتقول إذا سمعت بخير فكنه ، أو بمكان خير فاسكنه » . . سأحاول أن أطبق هذه المعادلة ، يا استاذ زمخشري . شكراً ، على الاستشارة! لا ، يجب أن تكوّن نفسك بنفسك . ولكني ما كل ما يتمنى المرء يدركه ولا كل ما يريده يكنه .

أعاد الكتاب فوق تل الكتب المهجورة . . سأغسل يدي . تلوثت . إذا دخلها الغبار تقرحت ، وإذا دخلها الكاربون تعفنت ، وإذا لم يدخل شيء ثارت . فضيحة!

فراش مريح . طقطقت له عظامه . أين الوجع؟ هنا؟ هنا؟ هنا؟ هنا؟ لا أدري ، كل المواضع موجعة . معدتك تاريخك . لا أظن لي معدة ولا تاريخ . مجرد جرح موجع . ولكن ما لجرح بميت إيلام . يعني أنا حي أتألم فأنا حي . وهذه نعمة من نعم الله أيضاً . نم ، يا سيد معروف ، قرير العين . . نم . . آه . . تثاءب عمر . .

سبع دقات من ساعة أُمه . ونهض السيد معروف على عجل . وجد الشاي مهيئاً . مرهونة تستيقظ قبله . لو كان لها بعل كانت . .

ارتاحت معدته لمذاق الشاي الساخن، ونكهة الجبن المنقوع. ولم تعو عليه. واكتفت بالقرقرة والتجشوء والحشرجة الناعمة الخفيفة، فلم يعبأ لها كثيراً حتى بعد أن تأوهت متأثرة بالدحس الروتيني في السيارات العامة. وكان السيد معروف مسيطراً عليها، وعلى كامل قيافته، وحتى على زر سترته الذي انقطع من اليسار أثناء الخروج، فتلقاه باليمين. مثل رآية رفعت لقوم. ودخل الدائرة منشرح الصدر. محلول عقدة اللسان، يردد في سره: لست أعور، ولا أحول، ولا أعرج، ولا ألثغ، ولا أعجم، ولا مشطور الشفتين. نعمة. وشعر باعتزاز وفخر. حتى استطاع أن يفتح غرفة المحاسبة، وهو يردد قول النبي العربي بينه وبين نفسه: «مسكين مسكين رجل لا زوجة له، مسكينة مسكينة امرأة لا بعل لها» وأطل على الجنس اللطيف إطلالة خاطفة تقول: أنا هنا. وإن كانت لا تفي بالغرض، فقد اختلطت أمام بصره الوجوه الرجالية والوجوه النسائية، تصفيفات الشعر والصلعات، الشوارب ولُعْس الشفاه، النهود الزنود. لم يدر من المقصود في قول زملائه في غرفة الطابعة: إنها تصلح زوجة له. عيونها وسيعة، وشعرها كالدجى. حقاً، كان اللون الأسود هو الطاغي.

صعد الدرج بخفة. وبادر فراش المدير قبل أن يبادره:

- لا، لست بلجنة النشر، ولن أكون.
- على كيفك، يا سيد معروف.
- إنتهى وقُضِي الأمر.
- الأيام بيننا.
- لا تهددني بالأيام ولا بشهر الصيام.

واندفع إلى غرفته بحركة اقتحامية جسور.

ـ صباح الخير، يا جماعة...
ـ صباح الزردة والحليب.
ـ نفا...

ولم يكمل جملته المعتادة، اتجه بخطى ثابتة نحو منضدته، ورفع النفاضة عنها، وفتح النافذة، والقاها في الشارع.

ـ ما هذه الحركة الاستفزازية؟
ـ مخالفة قانونية صريحة.
ـ إستهانة بأموال الدولة.

قال بصوت ثابت:

ـ سيكون ذلك كل يوم، إذا وضعتموها على منضدتي..
ـ مع سبق الاصرار.
ـ حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

وجلس على منضدته شاعراً بالعيون مصوبة إليه. صفّ أربع أوراق واضعاً بينها الكاربون. وحشر التشكيلة في شق الآلة الطابعة، وخرط، وعدّل، ودقدق، واستعد ليطبع كتابنا وكتابكم.

ـ لا، يا سيد معروف، هيء طابعتك لطبع قوائم الحسابات.
ـ أهذا قصاص؟ أنت تعرف أنني لا أطيقها. خطوط ومربعات ومستطيلات.
ـ أنا أعرف لماذا تتضايق من قوائم الحسابات.
ـ أرجو ألا تؤول، يا سيد هاشم.
ـ النية واضحة.
ـ ليست لي أية نية.
ـ لا تريد أن تعمل.
ـ لا، أبداً. آلتي في الانتظار كالعربة الكسيحة.

ـ مصيبتك أنك تستخدم خيالك أكثر من اللازم.
قال عبد اللطيف:
ـ وساوس الشيطان.
السيد مطر:
ـ مادة الذكاء الأثيرية.
صاح السيد هاشم:
ـ لا تصدقوا. مجرد هروب. هناك عملية خبيثة تجري في ذهنه.
ـ أية عملية؟
ـ عملية تحول. تصوروا، بدلاً من أن يكتب الموضوع: تحويل خط، كتب الموضوع: تحويل تفكير.
حملق به السيد معروف:
ـ يعني كنت تعرف خطأي، ولم تنبهني عليه؟
ـ ولماذا أُنبهك عليه؟ أترك الرئاسة تكتشف الجرم.
ـ سيد هاشم، لا تسرف في إدانتي.. لا تسرف..
والظاهر أن لهجة السيد معروف كانت قوية جداً، حتى أن السيد هاشم صمت محرجاً، وبعد ذلك حوّل الموضوع:
ـ المهم أنت تحب التلاعب. ولهذا تكره قوائم الحسابات، حيث لا مجال للتلاعب.
ـ لا، أبداً. كل ما في الأمر أن آلتي القديمة ترفض الاعتراف بأن الخط المستقيم أقصر مسافة بين نقطتين.
ـ لا، أنت تريد شيئاً تدس فيه أنفك، تريد أن تغير في لغة المكاتبات الرسمية.
ـ اقلعت عن هذه العادة السيئة منذ زمان.
ـ لا أظن. تزج أنفك فيما لا يعنيك، وتتهرب مما يعنيك.

- ما هو هذا الذي يعنيني وأتهرب منه؟

حدق السيد معروف في وجه السيد هاشم، وأوقف كتّاب الطابعة الدق على آلاتهم، يريدون أن يعرفوا هذا الذي يتهرب منه السيد معروف.

قال السيد هاشم بتحدٍ:

- الفعاليات.. اليوم آخر موعد للتسجيل فيها.

بهت السيد معروف، بينما اطمأن الآخرون على براءتهم من هذه التهمة. التهم إسفنج الصمت هواء الغرفة، فأحس السيد معروف بالضيق، فسأل مختنقاً بندرة الهواء:

- هل أنت جاد يا سيد هاشم؟
- بالطبع. اليوم آخر موعد للتسجيل.. لقد نبهتك.
- لا، أقصد هل أنت جاد في مسألة الفعاليات؟
- جاد بالطبع، كمادة من مواد القانون.
- دفعتها بصفة القانون.
- لا تطعن بالتوجيهات.

سارع السيد معروف لينفي هذه التهمة:

- أنا لا أطعن بالتوجيهات، ولكن أسألك بضميرك: هل أنت جاد في مسألة انطباقها عليّ، أو صلاحيتي لها؟
- ولم لا؟

قال السيد معروف في ضيق شديد متشبثاً بقلبتي سترته:

- بربك: هل أصلح أنا لأكون ممثلاً على المسرح أو لاعب كرة قدم، أنا الذي كنت أتهرب من الرياضة في المدرسة، وما أزال أكره أعمال السخرة.

- هل سمعتم؟ يعتبرها من أعمال السخرة. عملية تحول خبيثة تجري في أعماقه.

- ليست هناك أية عملية تحول. أؤكد لك. ما أزال ذلك الموظف الدؤوب المنكب على آلته الطابعة.

- ولم كل هذه المماحكة، إذاً؟.

- أُريد أن أسألك: هل أنت جاد في انطباق التوجيهات عليَّ؟

- قلت ولم لا؟ فمن يدري ماذا يوجد في بئر نفسك المطمورة؟

- رجعنا إلى المطمورات. يا أخي، أنا حقل نفط ناضب، والله العظيم، ناضب. دعوني مكلكلاً على عائلتي.

قال السيد عبد اللطيف مخففاً على السيد هاشم عبأه

- لماذا، يا سيد معروف، تتمسك بالمعنى الحرفي لهذه التوجيهات؟

قال السيد هاشم متشبثاً بالفكرة:

- نعم، ولماذا ذكرت كرة القدم والتمثيل؟ كأنما لا يوجد سواهما من الفعاليات.

- فرقة الإنشاد؟ عرض عليَّ أحد الظرفاء أن أنضم إلى فرقة الإنشاد، واحرك شفتي بدون صوت.

سارع السيد كاظم ليقول:

- أنا لم أقل ذلك.

- لا تغضب، يا سبد معروف، ليس هذا فقط.

أكد السيد هاشم:

- المهم أن تكون روحك معنا.

- إذا كان الأمر يتعلق بالروح، فهي معك بالتأكيد. وهل يحتاج ذلك إلى تدليل.

ـ وأن تنذرها للمصلحة العامة.

ـ منذورة، منذورة منذ الطفولة. أُمي تقول: لقد خلقت منذوراً.

ـ هذا هو المهم. ولكن يحتاج إلى إثبات ملموس.

أحس السيد معروف بأن فمه يجف، وقال في نفسه: هذه بداية هيجان المعدة.. العصارات تأكل جدرانها. وتأفف وقال بصوت مسموع:

ـ أوه، أي كابوس، أي كابوس.

قال السيد هاشم مشهداً زملاءه:

ـ إسمعوا. يقول كابوس.

ـ يا أخي. الكابوس في داخلي. معدتي كابوسي.

وكان يشير إليها كما يشير إلى دملة متقيحة ملتهبة، مختفية وراء حجاب قاس. وقال لنفسه حين عادت الآلات إلى القرقعة: سأذهب اليوم إلى الدكتور طاهر.. سأذهب.. الغروب يذبح في معدتي، ويسلخ. إلى متى، يا دكتور طاهر، سأعيش على معدة متقرحة؟ الأدريانين، أو الأدرياتين، لا أعرف اسمه بالضبط زادت نسبته بالدم. يغلي. العن أبا الغلاء لأبي الغليان لأبي صريح العبارة. أين أنت الآن. يا ذات الإبتسامة الحلوة والعينين الحدوبتين؟ مسِّدي على معدتي.. هدئيها.. ستثور عليَّ.. سأثور

ـ سيد معروف. حضرة المميز يدعوك.

ـ حاضر.

يحس أن العيون تعلقت به كالعادة. أعوذ برب الفلق، من شر ما خلق، ومن شر مميز إذا دعا. بارد الزنبور. أستغفر الله، أستغفر الله.

ـ نعم استاذ عبد الرحيم.

مدّ الاستاذ عبد الرحيم يده دون أن يرفع رأسه عن الأوراق الموضوعة أمام عينيه.

- ماذا، يا استاذ؟

- المقالة.

- ها، المقالة! أنا آسف، يا استاذ عبد الرحيم.

نظر إليه المميز من تحت النظارة. عيناه من تحت النظارة السميكة تجويفان قبيحان، بثرتان أو دملتان حمراوان، أو أي شيء آخر غير العينين البشريتين.

- ما هذا الأسف؟

- لأنني نسيت.

رفع المميز كل قامته، واتكأ بجذعه على ظهر الكرسي.

- ماذا قلت؟

- نسيت، يا استاذ عبد الرحيم.

- ولكنني متفق مع سيادة المدير..

- أعتذر.

- أهذا كلام عاقل؟

- أرجو ألاَّ يكون ذلك. ولكن النسيان قد وقع.

- ولكن كيف نسيت؟

- نسيت. أنت تعرف أن الانسان من النسيان، وليس كفراً أن ينسى الانسان، يا استاذ عبد الرحيم.

- في هذه الحالة كفر.

- ربما سأُكَفِّر عن الكفر غداً.. أُقدّم التوبة.

- ولكن اللجنة تجتمع اليوم. أخّرتُ اجتماعها إلى اليوم من أجلك.

- من أجلي أو من أجلك، ولكن النسيان قد وقع.

ـ ومع ذلك فأنت لا تقدم كلمة قاطعة.

ـ ومَنْ يستطيع أن يقدم كلمة قاطعة؟

ـ عجيب أمرك هذه الايام، يا معروف.

ـ ليس النسيان من الأمور العجيبة، وإلاَّ فماذا تُسمي الأمور العجيبة الأخرى؟ ليس أداة جرمية على أية حال.

ـ أسألك سؤالاً صريحاً: هل نسيت أن تتعشى البارحة؟

ـ بل أكثر من النسيان.

ـ كيف أكثر من النسيان؟

ـ كرهت الطعام، يا استاذ عبد الرحيم.

ـ غير لذيذ فكرهته؟

ـ لا، يا استاذ عبد الرحيم، بل لأن معدتي كانت توجعني فذهبت إلى الطبيب.

هزّ المميز رأسه في حيرة من أمره، وقال:

ـ هذا باب جديد، الذهاب إلى الطبيب.

ـ نعم، يا استاذ عبد الرحيم، باب جديد وثقيل على الميزانية.

ـ من يدري! ربما يتكرر اليوم.

سكت السيد معروف. فسدد المميز إليه نظرة مدرعة.

ـ لا أضمن لك أن لا يتكرر، يا استاذ عبد الرحيم.

ـ كيف لا تضمن؟

ـ لأنني بالفعل نويت الذهاب إلى الطبيب ثانية. إذا انفتح باب في الميزانية لا تستطيع أن تغلقه فتستريح.

ـ لا أعرف النغمة الجديدة التي تتحدث بها.. ميزانية! كأنك دولة قائمة بذاتها. أُريد أن تعدني: هل ستكتب المقالة غداً؟

ـ الله يعلم، يا استاذ عبد الرحيم.

- ستورط نفسك.

- الله يعلم.

- تضعها في تهلكة.

- الله يعلم.

- إسمع، يا سيد معروف، هل أنت تسخر مني؟

- الله يعلم.

- كفى.. ستعرف كيف الله يعلم.

- لا أحد يعرف كيف الله يعلم. هذا من شأن الباري عز وجل.

- أعرف. وستعرف أنت بالتأكيد.

- أنا العبد الذليل؟ لا أظن.

- ستعرف، لا تتباله.. الموضوع: تحويل تفكير. هذا هو الأساس.

- والله العظيم...

- لا تحلف.. كنت موظفاً مستقيماً كالميل.

- وما أزال، يا استاذ عبد الرحيم.

- لا أظن.. أعوج.

- لست أعوج ولا أعرج ولا أهوج ولا مشطور الشفتين.

- كفى فلسفة.. إذهب.. قطع الله لسانك.

عاد السيد معروف إلى غرفته منهوكاً يشعر بوجع في مفاصله. وكأنه صعد مرتقى صعباً. ركبتاه تئنان عليه، وجفناه يحكانه، وكأنما من ملح دموع غير مرئية. ولما استقر وراء طابعته أحس بسن الكافرة تعود إلى دورانها اللئيم في معدته. طعنة نجلاء يحس بوجعها المؤلم في ظهره، مع عرق لزج جعل الفانيلة تلتصق على عموده الفقري. ثم وخزت سن الكافرة عظم القص، كحمرة محماة. إستغفر

الله في سره، واستعاذ به، وبملائكته ورسله والصالحين من أوليائه. تفتت حيوية الصباح، واستحالت إلى ضيق في الصدر، وثقل في الرجلين، وامتعاض مقزز من الناس والنفس والجسد. ومن جديد راح يتمثل ذلك الشيطان الذي يوسوس في صدره، ويستولي على لسانه، ويقول أشياء فجائية فالتة لم تخطر على باله من قبل. ما إن تصدر كلمة ملعونة حتى تتقافز في أثرها كلمات لا نهائية، وكأنه يدخل في حوار يمكن أن يستغرق العمر بأكمله. لم يحس السيد معروف بالنضوب، لكنه أحس بالحسرة على شيء لم يفه به لسانه حتى الآن. كلمات كثيرة، ولكن شيئاً مهماً بقي في قلبه كان يجب أن يقال، ولكنه لم يقُلْهُ حتى الآن، شيئاً لا يعرف ما هو بالضبط، ولكنه موجود يثقل على القلب، ويخربش في الصدر كالفأرة الحبيسة، هو سر هذا الضيق الذي يحس به الآن، الامتعاض القريب من التقيوء، الثقل الكريه الشبيه بثقل الاصفاد، والمشي في النوم، كالعجز، كالعناد. قاتل الله هذا العناد. أو، لا، دع الله يقاتل في جبهات أخرى أهم. أوه، كفى. رأى قوائم الحسابات مكومة على منضدته. إغتاظ وعربد شيطان العناد في صدره. كأنما رأى النفاضة التي القاها صباحاً من النافذة تعود إليه، وتهزأ به. رفع قوائم الحسابات من المنضدة، وخرج من وراء آلته الطابعة، واتجه نحو منضدة السيد هاشم.

- تفضل.

- ما هذا؟

- لن أُخططها. قسماً بالله لن أُخططها. سأرميها من الشباك، ولا أُخططها.

- ما هذه الجسارة؟

ـ سمّها ما شئت ، يا سيد هاشم ، سمها ما شئت . فأنت تستطيع أن تسمي أي شيء بأي شيء آخر .

قال السيد كاظم :

ـ هاتها . . أنا أطبعها .

وتبرع بذلك السيدان عبد اللطيف ومطر .

ـ هاتها ، هاتها . . إنتهيت من شغلي .

ـ خذوها . . خذوا اللوغاريتمات ، وتمتعوا بها بقدر ما تشاؤون ، أما أنا فقد تركت الفرع العلمي بسببها ، وبسبب المثلثات والجذر التكعيبي . . أشياء جامدة لا تعرف الإبتسام . وما كنت أتصور أنها تطاردني في كهولتي .

جاء السيد كاظم ليأخذها . وابتسم له مشجعاً . قال السيد معروف :

ـ هانت ، يا سيد كاظم ، هانت .

ـ لا ، سيد معروف ، لا تتشاءم .

ـ هانت وهزلت ، والله . من محرر له طموحات إلى كاتب طابعة يستنسخ المربعات والمستطيلات . فكيف لا تهون؟

عاد السيد معروف إلى منضدته . وأسند مرفقه عليها ، لوى رأسه ، ووضعه على راحة يده المضمومة ، ونظر إلى طابعته السوداء القديمة المستهلكة باشمئزاز ، وكأنما ينظر إلى مزق معدته ، إلى حطام حياته . كتلة شوهاء لا تتحرك إلاّ بفعل قوة خارجية ، وتهضم ما يلقمه الآخرون ، محدثة بذلك الكثير من الضجة والنواح والحشرجة ، متعطلة من حين لآخر ، نزقة متعثرة ، متداخلة الحروف ، معوجة الخطوط ، لا يعرف أحد متى تدق دقتها الأخيرة ، وتهمد إلى الأبد ، غاصة بلقمتها الأخيرة . إن آخر حصن بدا له لا

يقوى على ستر نفسه ، فكيف يستطيع أن يستمر مخلوقاً آخر؟

فتح الباب بدفعة قوية ، وظهر فراش المدير العام .

ـ سيد معروف ، السيد المدير .

قرقعت عظام السيد معروف حين نهض فجأة . إمتحان ثانٍ؟ توجه نحو الباب ، ثم توقف هناك ، وأرسل بصره في الغرفة ، فوقع على النافذة التي قذف منها بالنفاضة في الصباح . كانت عيون زملائه تحتها تنظر إليه بريبة ، وكأنما مقدم على عمل منكر ضدهم . في المشى عدّل ربطة عنقه ، ومسح على فوديه الشائبين ، وتوكل على الله وكأنه خارج إلى سفر بعيد ، وتقدم من باب المدير . همس الفراش قبل أن يفتح له الباب «لا يستقر السيد المدير حتى يعود بك إلى اللجنة » .

ـ نعم ، يا سيدي ، هل أرسلت في طلبي؟

أمسك المدير بقلم ، واتكأ على ظهر الكرسي ، وقال وهو يضرب به أصابعه .

ـ نعم . هل راجعت نفسك؟

ـ راجعتها كثيراً . دائماً أنا معها .

ـ وعلى ماذا استقر رأيك؟

ـ بخصوص أي شيء؟

ـ بخصوص المقالة .

المقالة مرة أخرى؟ ستجني عليّ المقالة هذه . ستأخذني إلى قبري . وأحس بسورة غضب تعتمل في مكان ما في نفسه .

ـ أية مقالة ، يا سيدي؟

ـ المقالة نفسها . أما تزال تنكرها؟

أتبرأ منها ، أمقتها . العن ذلك اليوم الذي سطرتُ حرفاً فيها .

ـ نعم، يا سيدي.

ـ تنكر نسبتها إليك؟

ـ كل الانكار، يا سيدي.

حملق المدير في وجهه، وهزّ رأسه:

ـ عجيب أمرك، يا سيد معروف. ويدهشني هذا الانكار ويحيرني. مقالتك وتنكرها؟

ـ أنكرها، يا سيدي، أنكرها.. فأنا لم أكتبها، يا سيدي. لم أقم بأي عمل ملموس في حياتي..

ـ وهي مذيلة بتاريخ.. حين كنت تعمل في لجنة النشر.

ـ لا تاريخ يا سيدي.

ـ كيف لا تاريخ؟

ـ هكذا، ببساطة، لا أذكر تاريخاً.

ـ هل أنت تنكر وجود التاريخ عليها، أم التاريخ بشكل عام؟

ـ الاثنين، يا سيدي.

وضع المدير العام القلم على الاوراق مستفزاً، وقال:

ـ أنت مجرم إذاً، غبي، وغير وطني.

ـ يمكن أن تكون لي بعض الصفات السيئة، يا سيدي، ولكن ليس منها هذه الصفات.

ـ من صفاتك الحماقة والمكابرة.

ـ ربما الأولى.. ولكن الثانية لا. يقول الزمخشري: كابر فلان فلانا طاوله بالكبر.. فعلى أي شيء أكابر أنا؟ أنا أصغر مخلوق فيكم.

ـ أُسكت، سفيه.

ـ تؤمر، يا سيدي.

ـ تنكر التاريخ؟

ساقه المدير إلى زاوية، وحاصره. رأى شيطان العناد يطل عليه من وراء نسيج عنكبوت معلق فوق رأسه. قال بعناد الشيطان:

- أنكره، يا سيدي، أنكره كلياً - تنكر تاريخك؟ فكر السيد معروف قليلاً، ثم قال:

- إذا كان لا بد من الاعتقاد بوجود تاريخ لي، تبنيت قول أحد الأطباء: تاريخك في معدتك.

- هاه! بلعته؟

- لا، يا سيدي، بل هو الذي تكوَّن هناك دون إرادتي عن طريق الأطعمة التي تناولتها، والأزمات التي مررت بها.. أو هذا ما فهمته من كلام الطبيب.

- هاه! يا للصلافة.

- هذه صفة أخرى غريبة عليَّ، يا سيدي.

- قلت لك لا تكرر كلمة سيدي.

- تؤمر، سيدي.. أقصد عفواً يا... أقصد... ما هو التاريخ يا..؟ أرجو المعذرة: ما هو التاريخ؟

- تريد أن تمتحنني أم تعلمني؟

- لا هذا ولا ذاك، يا... أُريد الاستفادة يا.. هل تسمح لي بأن أُناديك: أبا زياد؟

- لا، لا أُريد.

- تؤمر، يا سيدي.. أقصد عفواً.. نعود إلى التاريخ.. هل تفضلت ونورتني بتعريف قصير عن التاريخ؟ إذا سمحت، بالطبع.

- أوه.. التاريخ، يا بهلول. هو تاريخ الناس. تاريخ البشر.

- لا أعتقد، يا سيدي. أرجو أن تسمح لي بهذا النداء اللازم. من قبل كان يا مولاي، والآن يا سيدي. ساد سيادة. إنه ينتاب الناس

من أمثالي بشكل لا إرادي ، كالفواق ، كلما خاطبوا الأكبر منهم رتبة .

- فواق؟

- أو شهيق ، أو دعاء ، أو صلاة ، على العموم ، عكازة لا يمكن الدخول إلى حضرتكم ومخاطبتكم بدونها . هكذا اقتضى التاريخ الذي تعتبره حضرتكم تاريخ البشر ، وأعتبره أنا تاريخ المميزين والمديرين العامين وملاك البيوت والمقاولين وأصحاب الاسواق العصرية ، ومن شاكلهم ، وأكل أكلهم .

- أُسكت ، سفيه .

- تؤمر ، سيدي .

- هذا تلقين من دعاة السوء والمشاغبين ومقسمي الناس إلى طبقات . هذا تجديف بالقيم . من أين جاءك هذا التصور الخاطىء للتاريخ؟

- لأنني لا أجد فيه شيئاً من تاريخي ، من حياتي . ألست من البشر ، يا سيدي؟

- بدأت أشك في أنك من البشر .

- الشك قائم منذ الأبد ، يا سيدي . وهو مثل خلق الكون ليس له بداية ، ولا أدري هل ستكون له نهاية . العلم عند ربي . ولكن من نعم الخالق عزّ وجل أن ما من إنسان أنكر ، بمحض إرادته ، أنه من البشر . وما دامت نعمة الباري هذا قائمة ، فإن هناك ملايين عديدة تشعر أنها خارج تاريخ البشر ، أو ربما بلا تاريخ مكتوب ، أو على الأقل ، لا تحس بالتاريخ ، ولا تعترف به . ومن أجل ذلك تقول إنها حقول نفط نابضة حتى لا يستغلها سادة التاريخ .

- أُسكت ، حيوان ، حشرة .

ـ وهكذا نفيتني بهذين النعتين من تاريخكم ، يا سيدي .
ـ سأنفيك من الدنيا كلها ، أيها الجربوع . أُخرج ، أُخرج .

خرج السيد معروف خفيفاً ، كالروح الخارجة من الجسد . ولكنها روح ذات أوزار ، خرجت من معركة منكر ونكير . تعلقت به أربعة أزواج من العيون حين دخل غرفته ، متسائلة متوقعة شيئاً كان يجب أن يقع ، وقد وقع بالفعل . وان كان بالشكل الذي لم يتصوره أحد من زملائه . حطّ السيد معروف بجسمه على كرسيه ، وتنفس الصعداء ، وكأنما أعاد الأمانة إلى خالقها ، الذي أوصى باداء الأمانة كاملة غير منقوصة ، وفطن إلى أن ركبتيه لا ترتجفان ، وجفنيه لا يحكانه ، كما حدث في المرات الماضية ، حين كان يحس وكأنه فرغ من نوبة نحيب جافة بدموع غير مرئية . وفرّ الفأر الذي كان يخربش في صدره إلى منطقة نائية من وعيه ، حيث رقد مثل حصوة في المرارة ، مثل ندبة من معركة سُجِّلت عليه ، وإذا خرج من الدنيا ، نفي منها ، خرج معه محمولاً على أعواد أو تابوت . وذلك هو الذي كان يشيع في نفسه شيئاً من المرارة والعجالة وعدم الارتياح ، وكأنما أصبح ينطوي على سرّ غير مأمون من قبل الآخرين . وكانت الدقدقة المستمرة العجماء ، وسكوت الألسنة التي تعودت على التعليق تشعرانه ببداية حالة من الحصار والعزل جعلته عاجزاً عن الاتيان بحركة ، أو النطق بشيء . ولم يعد يعرف ماذا يصنع بيديه المرتخيتين ، وكيانه المتوتر المشدود كله كالقوس . فنهض ، وقال دون أن يلتفت إلى أحد :

ـ صداع فظيع ، يا جماعة الخير . . أتسمحون لي بالذهاب إلى البيت قبل الدوام بقليل؟

وفي الطريق اعترته نفس الرجفة اللاإرادية . نفس القشعريرة ،

ولكنه وجد في نفسه القدرة على كبحها، ولم يتدثر في البيت. حشر يديه بين ساقيه المطبقتين في جلسته على سريره، ونظر بسهوم إلى مرهونة، وهي تدخل عليه بصينية الغداء. كانت صامتة تبدو متعبة مأزومة مثله، وكأنما شهدت مغامرته اليوم في الدائرة. نظر إلى ما في الصينية، وشعر بتقزز يثقل على معدته، فقد رأى مرق «القرنابيط» مبرقعاً بطبقة كثيفة من الدهن البرتقالي اللون، وهذا وحده كفيل بأن يثير شجن معدته، ويبعثها على الاحتجاج. وبدا له صحن الرز أبيض بارداً تصور أنه إذا وضع لقمة منه في فمه، لن يجد في فمه اللعاب ليمضغه. أزاح صينية الغداء، وذهب إلى أمه. وشعر بالاطمئنان الأعجم، وهو يدخل إلى حجرتها، وكأنما يعود إلى طفولته، حيث لا هموم، ولا تفكير، ولا تاريخ، ولا ماضٍ، ولا تهديد بالخروج من الدنيا. رآها جالسة جلستها المعتادة منطوية الجذع على السرير، ملفوفة الرأس بفوطتها البيضاء. شمت رائحته قبل أن تراه، أو أحست بالحركة، ورفيف الهواء حين دخل الغرفة. رفعت رأسها إليه.

- أهذا أنت، يا معروف؟

- نعم، أنا. كيف حالك، يا أم معروف؟

- ما دام معروف طيباً، فأنا طيبة.

أهدى له حنان الأمومة عزة نفس إضافية.

- صامد، معروف، صامد.

- هذا المرجو من الله.

- وكيف عندك ضغط الدم؟

صمتت، وعرف أن وراء صمتها ضغط دم عالياً. قالت متأوهة، تزيح قناع الثقة الذي تبرقعت به قبل لحظة.

ـ ضغط الدم يضغط على عيني ويحرمني حتى من رؤية أشباحكم. لم أرك حين دخلت الحجرة، ولكنني أحسست بالحركة. إن لدخولك حركة خاصة تختلف عن حركة أُختيك.. حركة رجل في البيت.

ـ سيكون هذا الرجل إلى جانبك دائماً.

ـ يا ليت...

وتهدج صوتها، وكادت تبكي.

ـ العاطفة، يا أُمي، العاطفة القوية تؤثر على عينيك وتزيد من ضغط الدم.

ـ وهل أستطيع أن أُنظف قلبي منها؟ ليس ذلك بيدي.

ـ إطمئني بالاً، فأنت امرأة قوية.

ـ نعم، قوية. أشهد بالله على أني قوية، ولولا عيناي، لرأيتني الآن أُطارد، وآخذ نصيبي من الدنيا.

كان يعرف ذلك دون حاجة إلى إثبات. حياتها شاهد على ذلك. ألم يربيه وتربي اختيه؟ صحيح أن خاله ساعدها في رفع حملها منذ وفاة أبيه ولكنها في حياتها كانت امرأة قوية حقاً، وصلبة..

ـ أخذت نصيبك من تعب الدنيا وزيادة.

ـ وما زلت أستطيع التحمل وأُحب أن أتحمل. كذب. ليس الإنسان كالحيوان يفطس بسرعة. أنه كالقطة ذو سبع أرواح.. أوه، يا معروف. أنت تعرف. ولكن عيني نكتت بي.

ومست عينيها بطرف فوطتها. الدموع ترقرقت فيهما، فتلزجتا.

ـ أعرف، يا أُمي. وأنا الذي نصحتك بإجراء العملية أكثر من خالي. كنت ألح عليك دائماً.

ـ خفت! هذا نصيبي، خفت... خفت أن أفقد البصيص الذي

كنت أرى به الدنيا ، أراكم والناس ، وطريقي إلى بيت الراحة . ولم أدر أن هذا البصيص يخفت شيئاً فشيئاً . وأنا أخاف من العمى الكلي ، أخاف أن تحجب عني أشباحكم ، ولا أرى من الدنيا غير الظلام . عندئذ سيكون ظلام القبر أهون .. لا .. لا ، لا أُريد .. ظلام القبر بارد ، يا معروف ، وموحش وخانق .. لا أتحمله ، لا أستطيع ..

وطفقت تبكي .

- عمرك طويل ، يا أُمي .

- وهل تتصور أن نفسي هي التي تهمني؟ لا .. أنا لا أُحب القبر لأنني لا أرى الذين أُحبهم ، ولا أعرف ماذا يجري لهم خارج القبر . أنا ، على الأقل ، أراكم تتحركون أمامي ، أرى أشباحكم ، وأشم رائحتكم ، وأستريح ، يهون عليّ العمى .

- أُريد أن أقول لك شيئاً .

- تفضلي .

- أخاف أن تتأثر .

- قولي . لم أعد أتأثر في شيء .

- أنت تذكر موفق ، ذلك الذي خطب أُختك محبوبة قبل عشر سنين .. ربما .

- أذكره بالطبع! هل جاء يبحث عني؟

هلعت الأم . لاح ذلك من حركة كفها اللائبة المبسوطة على الفراش . وبعد فترة من الصمت كانت تحس بثقل انتظاره خلف جفنيها نصف المطبقين .

- وجدوه ..

- وهل كان مفقوداً ليجدوه؟

ـ وجدوه.. مقتولاً.

ـ مقتولاً؟.. أين؟

ـ على الشاطيء؟.. قرب بيته؟

ساد صمت مشؤوم سرح كل واحد منهما في خياله الخاص، إلى توجساته ومخاوفه. كان السيد معروف يتمثل عملية القتل، وكأنها وقعت أمام عينيه اليوم، كان يتخيل الجثة ملقاة على تراب الشاطيء منبوذة معفرة مدماة. والصمت لم يعد يحتمل. كان لا بد من سؤال.

ـ متى كان ذلك؟

ـ قبل يومين.

ـ يعني في نفس الليلة؟

ـ أية ليلة؟

ـ لا شيء..

والصمت عاد يباعد بينهما، مثل لجة عاتية من نهر مضطرب. والخيال إذا أُصيب بالحمى شلّ اللسان والمنطق، وأصاب العقل بتوهج وهذيان.

قالت الأم بصوتها الكئيب:

ـ كأن قلبي أعلمني.. إذا تزوجته أُختك.

أردف يكمل الجملة الشرطية:

ـ تترمل ـ ثم صاح بضيق لم تعرف الأم من أي مصدر نبع ـ إذا لم تترمل هي تترمل أخرى.. لا فرق!.. عنده أربعة أولاد..

ـ من أين عرفت؟

ـ عرفت.. أنت تقولين لا يخفى شيء في الدنيا.

ولولت الأم لشيء خفي في نفسها. ودّ السيد معروف لو يعرف على وجه التحديد. ولكنه خمن أنه خوف غامض من مصيبة تحل في فناء البيت أكثر منه ندماً على فعل صدر منها، أو لربما آسف على خسارة رجل ارتبط بذكرى دفينة في قلبها، أو ربما تتأسف الآن لماضٍ كانت فيه مفتحة العينين، والآن، وهي في ليل عماها، ربما كان يبدو مثل حياة أخرى في أرض أخرى، وبين أُناس آخرين لهم وجوه، وغمزات عيون، وافترار شفاه، واختلاجة أيدٍ. وحين نهض من سريرها صاحت وراءه:

- معروف، هل تأثرت مني؟

- لا...

- أعرف أنك تأثرت.. أعرف، لا حاجة إلى الانكار. ومحبوبة تأثرت أيضاً.. أغلقت بابها منذ أن سمعت الخبر في الصباح، ولم تخرج لتناول غدائها.

وتحولت ولولتها إلى انتحاب صارخ مستصرخ تحاول به أن تخترق جدران الظلام الذي يفصلها عن رؤية التأثر في وجوه الآخرين، تتغلب به عن انقطاعها ووحدتها ووحشة نفسها المنبوذة والمخاوف والهواجس التي تتكون غزيرة في صدرها، ودون إرادتها، فتسبب بها اختناقات، وتمتص الهواء من صدرها، فتشهق وتشفط الهواء من فمها، وتهتز بكل كيانها هزات عصبية متشنجة حتى خشي السيد معروف أن تستولي عليها الرعشة، وذلك يحدث كلما انفجر ذلك البركان الخامد في صدرها، ورفع حممه إلى يافوخها، وأوشك أن يخنقها.

- إسكتي، إهدئي لا ينفع البكاء الآن. ما جرى جرى. أو كما يقول ذلك العربي الحكيم: ما مات فات، وكل ما هو آت آت.

وأكمل السيد معروف الخطبة في سره: آيات محكمات، وأباء وأُمهات وذاهب وآت. وذهب السيد معروف إلى غرفته دون أن يجد الرغبة حتى في الاستمرار في تهدئة أُمه. قابلته مرهونة بوجهها المسحوب المتقع ورقبتها الطويلة مثل فراغ قبيح بين رأسها وكتفيها، الطول الفارغ مثل طول رقبته. أم لعل طول الرقبة ليس فضيلة، ولا علاقة له بالتأني والصبر، كما تفضل الإمام علي، أو لعل الصبر ليس بمفتاح الفرج، كما تفاءل المثل العربي، أو لعل الفرج ليس له مفتاح، كما يظن السيد معروف أحياناً. صبر وصابر، وانتقل من المهد إلى الكهولة مروراً بسن التفتح وسن الزواج، وسيمرُّ بسن الكهولة الرذيلة. ثم مع السلامة، تفضل، تكفن بالصبر، يا سيد صابر، ونم نومتك الأبدية إلى يوم الحشر، ويوم تبعث حياً. وذوو الميزانيات الضعيفة هل سيحشرون؟ أما كفاهم حشراً في البيوت الضيقة والباصات المكتظة، والدوائر الخانقة بفعالياتها ومميزيها ومديريها العامين، بالجنس اللطيف أو بغير اللطيف، فإن جنسهن لن يلطف من الأمر شيئاً. على أيِّ أحدب أصبح السيد معروف؟ على أي أعرج أو أحول أو أعور أو مبتور الأذنين. ابن الرومي من الدرجة الأولى. متشائم. يخاف من الدنيا والناس..هذا هو الاتهام القديم الذي كان المرحوم موفق - تصوروا المرحوم الآن!- كان يوجهه له. إفتح عينيك، يا سيد معروف، إفتح عينيك. لماذا تعلقها على الغروب الهارب، ولا تلقي نظرة على الأرض التي تسير عليها، على مواقع قدميك. إسمع، سيد موفق: لكم دينكم ولي ديني.. من يك ذا بت فهذا بتي، مقيظ، مصيف، مشتي.. من يدري! ربما أبحث عن المن والسلوى تسقط من السماء. مثلما فعل موسى في زمانه. ولست أكثر خيالاً من موسى كليم الله.

وكان السيد معروف ، بالفعل ، يبحث عن شيء يسقط عليه . وذات مرة ، بعد سهرة المقهى ، سار في أزقة موحشة ، شبه مظلمة . في مثل هذا الجو كان يحلو له التوقيع . وفجأة أحس بشيء يسقط في الظلام . . شيء أبيض ثقيل كالدرة . ركض إليه ورفعه . كان كيساً من الورق مكوراً ، ضمه تحت أبطه كاللقطة . وبعد قليل أحس بالليونة تحت أبطه مع خرخشة . وفي الضوء التالي فتح الكيس . . ويا للخيبة! كانت فيه قشور برتقال وبيض . بعد أيام لقيه موفق في المقهى . هل تلقيت هبة السماء ؟ لا ، لم أتلقها بعد . . قال بجفاء . وقد ظن أنه كان يراقبه . وعلى العموم كان يغيظه أن يلمح موفق دائماً إلى ما في قلبه أو فكره ، يعرف مطوى أسراره . كأن موفق كان ينظر إليه من خلال نور ، كما تنظر صورة أشعة . وكان يرد على « لماذا؟ » المتكررة على لسان السيد معروف رداً جسوراً يقلب فيه مقاييس الساعة . وفيما بعد تملك السيد معروف العجب من تفكير العقل البشري ، وأراد أن يعرف كيف يعمل هذا العقل ، مثل الساعة ، أو محرك السيارة ، أو أية آلة أخرى ، أو بقوانين مختلفة تماماً؟ ولماذا يسير عند هذا الشخص بهذا الاتجاه ، وعند شخص آخر باتجاه مختلف ، ويدور عند شخص ثالث حول نفسه كالمصراع؟ وعلى العموم كان يغيظه ذلك الذي يقسِّم حظوظ الناس . لماذا كان لموفق أب وأم ، وأخ وأخت ، بينما وجد نفسه مع أم وأُختين؟ مصادفة؟ وما هي المصادفة؟ ولماذا يصادف عكس ما يريد؟ لماذا ينعم شخص بمصادفة حسنة ، ويحترق هو بجحيم مصادفة سيئة؟ حظوظ؟ مكتوبة باللوح المحفوظ؟ ولماذا هذا التحيز وعدم الانصاف في الحظوظ؟ التوزيع غير العادل حتى بنسب الجسم . طبعاً ، انه يحمد الله على أنه ليس أعور ولا أعرج ولا أفلج ولا مشقوق الشفتين . ولكن لماذا لم يتم

نعمته ، ويجعل رقبته معتدلة مثل رقاب الناس ، وليس بهذا الطول القبيح غير النافع؟ ولماذا لا يحق لأحد أن يعترض ويحتج على ما دوّن له؟ تفضل ، إعترض ، تمرد . ولكن ما فائدة التمرد؟ هذا السيد المتنبي تمرد ، وهجا ووقى وأبى وعتا على من عتا ، ورأى في ملوك الأرض أرانب مفتحة عيونهم نيام . ولكنه اضطر في آخر حياته إلى أن يحارب عصابة ، وقتل بيد أحد أقارب من هجاه ذات مرة . فكيف بالفقير إلى رحمة ربه السيد معروف عامر الدواليبي المشتق لقبه من دولاب الهوا؟ لا ، يا سيد موفق ، لا أُريد . فأنا لست من الذين شقت بطونهم ، ونظفت بطست من الذهب ، وملئت إيماناً وحكمة ، بل من السواد الأعظم ممن لم تشق بطونهم إلاَّ لإجراء عملية جراحية مستعصية . . مع أنني بحاجة شديدة لشق بطني ، وتنظيف معدتي من القروح الملتهبة . ولكن أين ذلك الجرَّاح النطاسي؟ يفعل ذلك مجاناً ولوجه الله ، يَدْخل في النار التي في معدتي ، ويخرج الجمرات التي في جوفها . مثلما فعلت أنت ، يا موفق ، في حادثة الحريق في بيت عمار ، وأخرجت أولاده ، وحصلت على مدالية فوق حاجبك ، أثر من لفح النار . وقتها أولت تأويلات شتى ، ككل شيء في الوجود . ومن ذا الذي يدري بما فيه من جهل؟ وأنا أيضاً لم أكن أدري بما فيَّ من جهل . وانجرفت مع تأويلات أُمي ، في قضية الأخت الوديعة . وخفت خوفها ، وتفجعت تفجعها . سياسي؟ لا ، لا ، خطر . بلا مستقبل . السياسية آفة مهلكة ، ورطة وبيلة . ولهذا السبب رفضت ، خفت على أُختك من الترمل على الأقل ، وكأنها أول أرملة في الاسلام . ولم يكن يهمك أن تترمل أخريات ، بأطفال أربعة أو خمسة ، أسكت ، مجرم ، حقير ، حشرة ، جربوع . كلنا ، يا استاذ مدير عام ، من قوم متهمين بأكل اليرابيع . واليربوع ، كما يقول لسان

العرب ، دويبة تشبه الفأر ، إلاّ أن السيد الجاحظ يَعِدُّه من حشرات الأرض . يداه أقصر من رجليه . بعضهم يصفه بالحيلة ، والبعض الآخر بالمسكنة . ولكن الاصطياد والقتل حاصلان ، ولا أحد من أئمة اللغة العربية ينكره . بل أن راوية العرب المغفور له الجاحظ يروي عنه أشعاراً لطيفة :

يا رب يربوع قصير الظهر	وشاخص العجب ذليل الصدر
في العُسْر إن كان وبعد العسر	اطيبُ عندي من جنى التَمْرِ
وشحمةِ الأرض طعام المُثري	وكلٍّ جبار بعيدِ الذكر
اكلهُ غير الحرابي الخضر	أو جُعَل صلى صلاة العصر .

بقي أن أذكر ، انصافاً للتاريخ ، أن الاعراب ، كما يقول الجاحظ ، لم تكن تتصيده في أول الليل ، لأنها تعتبره من مطايا الجن ، ولكنه في عصرنا الحاضر الذي لا يؤمن بنظرية الجن والانس ، يصاد في كل الاوقات ، آناء الليل ، وأطراف النهار . تفضل ، صده ، قدر ما تشاء ، ومتى ما تشاء ، وأينما تشاء . وأنا ، الجربوع ، لا أخشى أن أؤكل ، أو هذا ما أقوله بيني وبين نفسي ، ولو كنت آسف على ذلك ، بصريح العبارة . وأخشى ما اخشاه ، ولا سيما في الوقت الحاضر ، أن أحيا غير حميد ، وأموت غير فقيد . . يعني كالجربوع . وأنا في ذلك أشترك مع السيد المتنبي ، طيب الله ثراه ، الذي كان مقامه بأرض نخله ، كمقام المسيح بين اليهود ، فأُعتبر متنبياً . مع أنه ، كالسيد موفق رحمه الله ، كان عوذ الجاني وغوث الطريد . ومن يدري! فقد يكون من أُمةٍ تداركها الله غريباً . كصالح في ثمود . إلاّ أن القتل حاصل على أية حال ، في النعمانية أو على شاطيء النهر ، في ليلة قمرية أو ظلماء ، وحتى في وضح النهار ، أو رائعة النهار ،

ولا تقل رابعة النهار. ومن يدري! عندما كان يتحدث عن معنى إبليس، كان أحد الأبالسة يشحذ له سكيناً، أو مسدساً، ويترصده. والمنايا رصدٌ للفتى حيث سلك! ولكنك، يا سيد معروف، هيأت الفرصة للفتك به. عندما كنت تقول لا تفكير، وأنا إنسان يعيش بلا تفكير، كان هناك من يفكر في القتل، وينوي عليه. والنية، يا سيد معروف، موجودة، ولا يوجد إنسان بلا نية. ولكن الاختلاف في النيات. وهناك نيات غاية في الشر، تجعل الانسان يؤمن بقول الحجاج. اَمنا والله، إني لأحتمل الشر بجمله، أو أحذوه بنعله.. أوه، كم لك من أفكار جهنمية، يا سيد معروف، وتقول ليس عندي أفكار.. هذه الامثلة التي تستشهد بها، أليست أفكاراً، يا سيد تراث أفندي؟ شاة الأعمش التي كنت تحلم بها، وتود أن تكون لك، ألا تتطلب فقيهاً أعمش يسرّ لها فقهه؟ تنكر؟ تنكر التاريخ؟ نعم، أنكره.. يعني عندك أفكار ضده؟ تكلم، أُنطق. والسيد الجاحظ وعظ بالكلام وقال: صار الكلام أفضل من الصمت، لأن نفع الصمت لا يكاد يعود الصامت، ونفع الكلام يعم القائل والسامع، والحاضر والغائب، والراهن والغابر. ولهذا صار من المتكلمين. تكلم، يا سيد معروف، تكلم. هل أبلسك الله من الخير؟ تساوت لديك الأمور؟ وصارت الأيام كلها كيوم واحد؟ مع أنك تعرف قول السلف الصالح: «مَنْ استوى يوماه فهو مغبون، ومَنْ كان يومه خيراً من غده، فهو مفتون، ومَنْ كان غده خيراً من يومه فذلك السعيد المحظوظ» لا، لست سعيداً، يا سيد معروف، لست سعيداً ولا محظوظاً. أنت لا تختلف كثيراً عن ذلك الذي وصفه أحد العلماء بأنه أسوأ الناس حالاً، لأنه قال عند موته: دخلتها جاهلاً، وأقمت بها حائراً، وأُخرجت منها مرغماً» وهو يقصد الدنيا، الحياة. فهل

هان عليك حتى أضعف الايمان، يا سيد تراث أفندي؟ تنسب أفكارك إلى شيطان يستولي على لسانك؟ تتبرأ منها ساعة تريد. شجاعة فارغة لا نفع فيها مثل طول رقبتك. ولو كنت شجاعاً حقاً، لذهبت الآن إلى أُختك محبوبة، واعتذرت لها عن الاذى الذي ألحقته بها من جراء رفضك لزوج كريم.

جأجأ صوت مرهونة من وراء الباب:

- معروف، ينادونك؟
- مَنْ؟ صاحب البيت؟
- لا.
- الشرطة؟
- لا.
- من يطرق الباب عليَّ إذن؟
- شخص لا أعرفه.

خرج السيد معروف إلى الباب مذهولاً، وكأنه ذهب ليقابل شخصاً بُعِث حياً.

- ها، سيد كاظم؟ خير إن شاء الله؟
- قلت لنفسي لا أنام إلاّ أن أُقابله.
- خير؟ لا أستطيع أن أدعوك إلى البيت، مع الأسف الشديد.
- لا حاجة إلى الازعاج. دعنا نتمشى.

وفي شحوب المساء كان صوت السيد كاظم يبدو صادراً من دهليز.

- أيٌّ يوم حافل كان لك اليوم، يا سيد معروف؟
- حافل، يا سيد كاظم، حافل.
- كنت فيه كالمكوك، من المميز إلى المدير العام.

ـ نعم، مكوك بين يدين ماهرتين. تدفع اليمين لتستقبل الشمال.

ـ أرجو ألا يكون قد أفلت منك ما يعكر زمالتنا، إذا لم تكن صداقتنا.

ـ وهل تتصور أن يفلت مني مثل هذا الشيء؟

ـ يجوز.. في ساعة الوقوف بين يدي السلطان.

ـ لا، يا سيد كاظم، لا تقلق من هذه الناحية.

ـ عندي أولاد، يا سيد معروف، وليس لهم معيل غيري.

ـ لست معدوم الضمير، يا سيد كاظم. ثم هل لدي شيء لأقول؟

ـ بخصوص دعوتك إلى الانضمام إلى فرقة الإنشاد. سمعت السر يفلت منك.

ـ ماذا قلت بالضبط؟ آه، تذكرت! هل أنت من الظرفاء يا سيد كاظم؟

ـ في هذا الموقف بالذات، أرجو ألا أكون.

ـ كن على ثقة.

ـ أنا لا أثق بالمثل القائل.. «دار السيد مأمونة».

ـ ولا أنا.

تأفف السيد كاظم، وصمت طويلاً كأنه لا يعرف كيف يواصل الحديث، أو كأن مخاوف أخرى شديدة تنازع نفسه. ثم قال بتهيب:

ـ هل لي أن أعرف ماذا تحدثت مع المدير العام مثلاً؟

ـ يمكنك.

وصمت السيد معروف طويلاً، على العادة، في المواقف التي تقال فيها كلمات حاسمة، وأردف بعد ذلك:

ـ تحدثنا عن التاريخ.

ـ التاريخ؟

ـ نعم، عن التاريخ، هل لك تاريخ يا سيد كاظم؟
ـ تاريخي هو تاريخ استلام الراتب كل شهر.
ـ أما أنا فانكرت التاريخ كله.
ـ أنكرت التاريخ؟
ـ أنكرت أن يكون التاريخ هو تاريخ البشر، كما قال سيادة المدير، فلو كان التاريخ تاريخ البشر لكان تاريخي أيضاً. ألست من البشر؟
ـ هوى، هوى، هوى. إسمح لي، يا سيد معروف، أنت تورط نفسك في أشياء أنت في غنى عنها.
ـ ربما. ولكن هل أنت في غنى عن أن تعتبر نفسك من البشر؟ تلك نعمة من نعم الباري، يا سيد كاظم، أم أنك تؤمن بالقائل: «لعل الله فضلكم علينا بشيء، أن أُمَّكُم شريم»؟
ـ لا أعرف. ولكنك ستندم، يا سيد معروف، ستندم.
ـ لا أظن، يا سيد كاظم. ولو قُدِّر لي أن أُقابل المدير العام مرة واحدة، وجرى الحديث على نفس الموضوع لقلت نفس الكلام، بل ولصرخت في وجهه: «لو كان التاريخ هو تاريخ البشر حقاً لكان تاريخي «واضفت» وتاريخ نسيبي الذي قتل قبل يومين».

حزيران، ١٩٨٠

الشيخ يصر



استيقظ لهم منذ الفجر ، إنسل من فراشه خلسة تاركاً نسمة أواخر الليل خلفه ، وهبط السلم متكئاً على الحائط ، ولما هبط الدرجة الأخيرة رفع عينيه إلى فوق ليتأكد من أن زوجته لم تستيقظ في إثره ، وعبر الفناء المستطيل المتسربل بظلام الليل البارح المزوج بروائح قديمة ، وحمل مقعداً إلى المجاز وجلس ينتظرهم . بالأمس سهر بانتظارهم حتى منتصف الليل . . . إلاّ أنهم لم يأتوا . لم يسمع حركاتهم خلف الباب ، ولا وشوشة أصواتهم،واليوم صمّم أن يغبش لهم ، جلس مسنداً خده على راحة يده ، وأرهف سمعه ، وراح ينتظرهم ، سيجلس حتى يسمع حفيف أقدامهم خلف الباب . عند ذلك سيقفز ويمسك بتلابيبهم ، ويصرخ حتى يوقظ جميع الجيران ، ويريهم من هو . أنا أبوك!

كان هواء البيت وغراً مكتوماً ليس كمثل نسمة السطح في الغبش . نازع النوم ، وانتشل جسمه من الفراش . والآن عاد إليه النوم من جديد وهو خلف الباب . فتح جفنيه الثقيلين ، ورفع حاجبيه في مغالبة . ووضع أذنه على خشب الباب ، وتأمل من خلال نقاب من الظلمة الجزء الأسفل من الفناء . نوافذ السرداب الضيقة ، وجزءاً من حب الماء ، والدرجات الثلاث الأخيرة من السلم ، والجزء الأسفل من باب الحمام ، والمطبخ ، ومنخفض البالوعة . وكان الصمت يغمر كل شيء . وكان الظلام يشف قليلاً أمام عينيه ، وفي داخل صدره شيء يحكه ، رغبة عنيدة في أن يسعل . غالبها مخافة أن يشعرهم بوجوده ، ثم هوّم ثانية وثقل جفناه ، فنفض السنّة الطارئة

بهزة من رأسه ، سعل بعدها رغماً عنه ، وحك صدره الأشيب يريد أن ينتزع هذا الذي يخربش فيه . وبعد دقائق سمع خوار بقرة فعرف أنها سكينة أم الحليب تقود بقرتها إلى رأس الزقاق حيث تبيع الحليب للناس . ولكنه لم يسمع أصواتهم . لم يسمع خربشة أيديهم على الباب . صمت كل شيء إلاَّ قلبه ، مثل رقاص ساعة قديمة ، وجاءته الرغبة العنود . مرة أخرى ، الرغبة في أن يسعل . كز على أسنانه ولطم فخذه وبعد قليل هزت الصمت صافرة ناطور الليل .

وبعدها سمع هسيس مكنسة الكناس ، وتيقن أن الصبح قد طلع ، وأنهم لن يأتوا .

كان ظلام المجاز مثل دخان يوشك أن يتوهج وحين نهض أمسك بركبته اليسرى المبتلاة بالروماتيزم ، ورأى النور قد شف في الأعالي . ولاح باهتاً اللون الأخضر الذي صبغت فيه شناشيل الحجرة في الطابق الثاني . وقال في نفسه « ما راح يجون اليوم . عبالك عارفين آني كَاعد انتظرهم . يعرفون آني منو . أنا أبوك يا حيدر » . وناقش نفسه « البارحة هيجي وكت سمعت الخرخشة » وتوهم أنه يسمعها الآن . ولم يسمع إلاَّ دقات قلبه يدمدم في صدره كطبل مثقوب . ثم سمع وقع أقدام ثقيلة تهبط الدرج . فعرف أنها زوجته . رأى قدميها الثقيلتين حين التفت ثم ثوبها الأسود ، وجسدها المكور . ولما اقتربت همست في عتاب .

ـ عبالك ما حسيت من كَعدت؟

سعل وقال بصوت خفيض :

ـ لازم أشوف من هذوله .

ـ واش فايدة؟ وإلمن تشتكي؟

ـ ما اشتكي لأحد . . عندي يدين . والامام الميشور يسموه أبو

الخرك.. فطومة، الإمام الميشور يسموه أبو الخركَ؟

وانتابته نوبة سعال. ولما رفع بصره إلى زوجته رأى في عينيها نظرة حنان. عجوز، مكسر؟ لا فطومة وخنق رغبة أخرى في السعال. وبح من حنجرته. وهدأ، وسمع محرك سيارة، ثم آخر، وأيقن أنهم لن يأتوا. رفع رأسه إلى السماء المستطيلة، وكأن درابزين السطح داخل فيها، فرآها زرقاء مضيئة وزاد ذلك في يقينه. صمت ما وراء الباب، بينما دبت الحياة في الخارج بعد العطفة الصغيرة التي تقع فيها داره. كان يسمع دبيب أقدام المارة وسعالاً متقطعاً وحق الـ« الله كريم » الذي يسمعه كل يوم منذ عشرين عاماً، يفوه به بائع كبة متجول. وأُضيء الفناء بضوء الصباح، عادت الأشياء كما كانت، ومل الانتظار. « يعني ما راح يجون؟.. زين باجر الله كريم.. على كَولة حساني أبو الكبة ». واقترب من الباب، ونظر إليه في نقمة. قفاه ذو التجاويف الهندسية التي بدت مظللة الآن، وحادة الخطوط، وصهل مزلاج وتخطى الشيخ العتبة إلى الخارج ونظر إلى الباب نظرة فارغة. وفي ضوء العطفة رأى شيئاً يملأ أعلى الباب. إقترب منه. بحلق فيه. كانت لطخة لاحت داكنة الحمرة مثل دم قان. غرز اصبعه فيها .كانت دبقة لما تزل.

صاح من مكانه.

ـ لج فطومة، تعالي شوفي.

وجاءت تتكفأ في مشيتها، عجوزاً ردت إلى عمرها الأول. قالت وهي في المجاز:

ـ شكو؟ حطوا بزونه لخ؟.

ـ بعد انكَس.. شوفي الكتابة الحمرة.

تخطت العجوز العتبة في حذر ، ووقفت إلى جانبه ورأت الكتابة . وقالت :

ـ إش مكتوب بيها؟

شم عرفني؟ . . مثل العين العورة .

كانت اللطخة أمامه مثل ذيل معكوف . وقف وزوجته العجوز يتطلعان اليها ، وكأنهما يستطيعان بعد طول التملي أن يفكا رموزها . كانت غامضة ومغيضة ، سوداء حمراء ، ما بين السحر والإساءة ، وتضايق الشيخ من كون أُمه وأبيه لم يعلماه القراءة والكتابة ، تضايق أكثر من أي وقت مضى في حياته وبعد أن تعبت عيناه من البحلقة العمياء حوله في العطفة الصغيرة مستغيثاً ، لا شيء غير الحيطان . وخرج إلى الطريق ، وتلفت تلفته الحائر المستغيث كان الناس يسيرون في هدوء وكأنهم لا يعرفون باللطخة ، نظر شاب إلى سروال الشيخ الداخلي الطويل وابتسم له في مودة،وهمّ الشيخ بأن يسأله . رفع يده قليلاً ثم خفضها ملقياً إياها على فخذه . ماتت كلمة الرجاء على شفتيه ، من بعدي ماذا تحمل هذه الكتابة المحتقنة العوراء؟ ثم انها مكتوبة بالصبغ الأحمر ، وهو وحده سبب كافٍ لإثارة المتاعب . واتجه الشيخ نحو اليسار ، إلى دكان حسين العطار ، هو وحده يستطيع أن يقرأ الكتابة المشؤومة . وإذا كان فيها اذية لا يفضحه أمام الناس . ولكن الورقة الحديدية كانت مسدلة ، وعاد الشيخ إلى العطفة ، ووقف أمام الباب . لاحت له الكتابة حمراء دامية .

ـ إشلون كتبوها؟ سأل زوجته . وكانت جالسة على المقعد .

ـ كتبوها . والإنسان ميكَدر ينتظرهم طول الليل؟

ـ ويظلون يلعبون علينا؟

ـ الله يجازيهم.
ـ لا، فطومة، الامام الميشور يسموه أبو الخركَ.
وسعل محتقن الانفاس. قالت له متفجعة: الماي فاير. تعال خش، واشرب ماي حار. إمتنع مفضلاً أن ينتظر حق يفتح حسين العطار دكانه، ويعرف ماذا تعني هذه الكتابة التي يقف أمامها مشدوهاً، عاجزاً يتميز غيظاً. من قبل علقوا قطعة سوداء ميتة ثم فأراً. ومرة لطخوا بابه بنتانة، كل ذلك فعلوه وفهم الإساءة، وصمم على أن يظفر بهم، وينتقم. والآن لا يعرف ماذا يقصدون بهذه الكتابة. خطوها بصبغ أحمر جسور، وملأوا بها القسم الأعلى من الباب. كيف خطوها؟ بالظلمة؟ وظلت عيناه الصغيرتان تبحلقان بالكتابة الملعونة.
جاءت زوجته بقدح الماء المغلي. وجلس يحتسيه.
واقترحت العجوز.
ـ أجيب لك وصلة وماي حار وتمسحها؟
ـ إشلون أمسحها؟.. أريد أعرف إش مكتوب بيها.
ـ الله يعلم ـ شمرت العجوز ذراعها ـ يمكن فشار.
ـ لا. أُريد أعرف ـ قال بتصميم ـ بس اليوم، العطار اتأخر. وينك يا بو علي قالها متضرعاً. فردت عليه زوجته:
ـ لو ولدنا هنا!. جان هسه قروها، وما خلونا بحيرة.
قال الشيخ مغتاظاً:
ـ هجولوهم.. خلو البيت يصرصي.
وغرق في سهوم تقيل أفاق منه على صراخ درقة دكان وراء العطفة. نهض في عجالة وقال ملهوفاً.. أجه حسين! «وركض كالطفل تاركاً قدح الماء على المقعد».

وبعد دقيقتين عاد مع رجل ربع القامة بيضوي الوجه أشيبه وصبح العجوز بالخير، وسألها عن الصحة. فاستعجله الشيخ:

- خلي الصحة على كتر.. كَلي اشمكتوب هنا بالأول.

رفع الرجل رأسه إلى الباب، وبحلق بالكتابة.

- ها؟.. إش مكتوب؟

إقترب من الباب، ورفع أصبعه إلى الكتابة، وكأنه يتهجاها.

- إش مكتوب، حسين؟

- مكتوب؟!. مكتوب.. شيل.

- شنو، شنو؟

- مكتوب: شيل.

- هيجي؟ دفعة وحدة.. شيل!

- أي، بلي، شيل.

صمت الشيخ مراجعاً نفسه، ثم قال بلهجة أخرى.

- آني عرفتها من الأول.. يريدوني أشيل.

كان بصر حسين ما يزال عالقاً بالباب، وكأنما يريد أن يتأكد أكثر مما رأت عيناه. وكان الشيخ ينظر إلى وجهه في لهفة وترقب. ربما يراجع فكره آخر الأمر. هكذا! دفعة واحدة شيل،ليس من المعقول أن تملأ كلمة واحدة هذا الحيز الكبير من الباب شيل!

- شيل، بس؟

- أي، نعم، شيل. هياتها حي على الصلاة شين ي، لام. شيل.

- وهذا عقلهم؟ أشيل؟ البيت اللي تزوجت بيه أشيل منه؟ البيت اللي غرغرت بيه أُمي وأبويه أشيل منه؟ عجيب!

قال حسين وقد كف عن البحلقة، ولاح كدر على وجهه الاشيب.

ـ واحد يتجفه الشر.

حنق الشيخ، وقال:

ـ هذا موتجفي الشر.. هذا يعني تنصي للشيطان.. وتـ.. وتـ تبوس ايده: زين باجر عليك واحد، ويكَلك شيل من الدكان اللي صار لك بيه عشرين سنة، يعني أتشيل؟

ـ أشيل.

ـ يابه متروح على شغلك! شنو قرقوش، هولالكن؟

ـ ايه..

ـ وأحس الشيخ بأنه أساء إلى حسين. التفت إليه فرآه قد نكس رأسه وتحرك قائلاً.. عن اذنكم.. خليت الدكان.. تنكَضي... ولم يقل الشيخ شيئاً كان واقفاً أمام الباب لما يزل فرأى الكلمة الحمراء تسخر منه. تضحك على شيبته أنا أبوك يا حيدر.

ـ تعال خش، عيني.

ـ آه، لو أعرف منو كتبها ـ وكز الشيخ على أسنانه.

ـ تعال خش، عيني.. صدرك راح يهيج عليك.

دخل البيت وراء زوجته. كانت الشمس في الأعلى تعكس كل نورها على الفناء. كانت هناك على الظليلة الخضراء للشناشيل صعد الشيخ وزوجته الدرجتين إلى الديوخانه، وجلس على تخت خشبي، بينما آثرت العجوز الجلوس على الأرض وراء سخان الشاي في مكانها منذ ثلاثين عاماً تقريباً، كانت الديوخانة إذ ذاك مفروشة بالسجاد. وكان هادي يجلس إلى جانبها. ثم جاء الاولاد. وكبروا ودخلوا المدارس، والكليات، وتوظفوا. ودخلت الكراسي إلى الديوخانة. ولكن العجوز تعودت الجلوس على الأرض. تتربع على السجادة ساعات دون أن تتنمل رجلاها. ولا تقرب الجلوس إلى

الكرسي. عنّ للشيخ أن يسأل فجأة:
- فطومة، تذكرين جم مرة بيضنا الديوخانة؟
- ما أتذكر.
- أكثر من أربع مرات نحسب من تزوجنه. هاي مرة، ومن طهرنا الولد هاي مرتين. ومن تزوج حيدر. هاي ثلاثة ومن تزوج شاكر هاي أربعة، وقبل ما يطلعون الولد هاي خمسة.

لم تجب العجوز. كانت منشغلة بصب قدح شاي.

وقدمته له. وقربت طاسة الكوز الكردي المنقوع بالماء. تلفت الشيخ في الجدران وكأنه يستقرئها. ذات صيف جعل الحائط الذي أمامه بالفراغ، وأتى ببناء، وانشغل معه يومين يراقب كل لبنة كيف توضع في مكانها. كان يقول للبناء: أُريده يعيش لولد ولدي.. أُريده متين. والسقف؟ نظر إليه في وله. لم يكن قبل زواج حيدر مغطى بالالواح. ولما تزوج حيدر غطاه بالالواح الخشبية على أشكال معينة. وصبغة باللون الأخضر الفاتح وحين كانت الشمس تنعكس عليه في الضحى كانت الديوخانة كلها تلوح خضراء خضرة زمردية. أوه. كان سرير العرس هنا، وصوان الملابس هناك. والتواليت بمرآته الكبيرة. ويومها استحى أن يدخل. ثم صعد العروس أو العروسة إلى الطابق الثاني بعد شهر يسمونه شهر العسل.
- الجاي مالك راح يبرد ـ ماريد.

وترك التخت. وهبط الدرجتين إلى الحوش، نزلت الشمس على الشناشيل. ومست درابزين الممر المؤدي إلى الحجرة التي كان ينام فيها حيدر وزوجته. من هنا صاح على حيدر يوم الدخلة «من دخلت آني متأخرت هيجي. أيه شباب هيجي وكَت». وكركر من الفرح. كانت الأرض لا تحمله من الفرح. ثم تزوج ابنه الثاني

وحلف أن يزوج ابنه الثالث قبل أن يموت. حلف على ذلك بشيبته. تنكَص رجلي هذي أم الروماتزم، أصل العلة والبلية. وكانت زوجة حيدر تنتظر مولوداً. وهو سلطان على البيت وفي الصباح، قبلته العروس الثانية من رأسه. وكَعت عليه. وهم أن يقول شيئاً ماجنا فخجل. كان ابنه يراقبه. يريده أن يغلط.. أنا أبوك يا حيدر. كان الفصل صيفاً. وكان جالساً على الكرسي في تلك البقعة التي يتأملها الآن. بين حب الماء والدرج. كانت الشمس تملأ الحوش أيضاً. وصاح جالساً على الدرج. صرخ به «كوم، دتنزل العروس» ونزلت الآن عروسه القديمة متوكئة على ركبتها، ولما اقتربت منه قالت:

- إشلون؟ صدرك اليوم راح يهيج عليك.

ما زال حب الماء في مكانه أخضر عند الجانبين، والدرج الذي نزلت منه العروس متربًا تآكلت خشباته الموضوعة في حد كل درجة. وفي الجانب الآخر الحمام.

- فطومة، تذكرين إش كَد تعبت لما بنيت الحمام؟

- هواية.

- ردتهم ميطلعون، البيت جبير يضم عشيرة، جانوا يريدون حمام سويت لهم حمام مال ملوك. بيدي هذي المكَرفعة بنيت الحمام كل شي سويته بيديه، كل شي على مودهم والمطبخ قرب الحمام مبلط بالطابوق وفي عنقه مائدة كان حيدر يتغدى عليها. والآن مهجورة، لأن العجوز لا يلذ لها الأكل إلا على الأرض. لأن المطبخ يشعرها بالإختناق، ها هي احجار المطبخ الأرضي، آثار الدخان على الحائط، وهناك على الجانب الغربي للبيت آثار أقوى منها، حيث كان هادي الحاج رشيد يهرس الهريسة للفقراء في قدر كبير يملأ الضلع

الغربي لمستطيل الحوش كله، كان البيت يموج. كان البيت دائماً يضج بأهله. والناس خاشين طالعين. جان يوكَف عبالك ريس عشيرة. الدنيا متحملة. جان يكَول.. بس الله يخلي البيت عامر. لاخلي الدخان يصعد لسابع سمه.. أستغفر الله.. كفروني من الصبح.

- فطومة بعد شهر للهريسة - إذا الله خلانا طيبين. يخلينا، شمسوين عنده؟ ناهبين مال الناس؟ فطومة طلعي من مخچ. آني اطلع من البيت. راح ابقه وهالسنة اسويها عنجلية. كل الناس أخليهم يكَولون هذا أبو حيدر.

- ويخلوك.

- يخلوني.. منو ميخليني؟.. كوتره، أطلع من بيتي؟ فطومة، بيت الانسان وطنه.

ساعة ١٢

١

قبل أن أفتح عيني شعرت بالألم حاداً في رقبتي وفي كتفي. كان جسمي كله قطعة ثقيلة لا أستطيع له حراكاً. كانت أُذني اليمنى توشوش بلا انقطاع. كانت رأسي تؤلمني. وكانت الحرارة تتوهج في مفاصلي، وفي بدني كله. فتحت عيني بتثاقل، فرأيت أمام عيني وجهاً مستديراً يحدق بي. ولأول مرة لم أعرف من هو. كان بلا شارب. وعيناي لم تتبينا ملامحه بوضوح. كنت أشعر بدوار في رأسي. كنت أشعر بحمى. أنا محموم، وعلى عيني غشاوة، وفي مفاصلي خدر، وكنت أحس مثل لسع النار على كتفي الأيمن. كانت كتفي تلتهب، ورقبتي كلها متوهجة. وإذ رأيت الوجه المطل عليَّ يتمطى تخيلت أنه يبتسم لي. كنت أحس به قريباً مني حتى أردت أن أُكلمهُ. غير أن فمي كان جافاً جداً، وشفتاي خدرتين. وبعد قليل أحسست بنور أصفر في جهتي اليمنى أضاء الوجه فجأة. وكنت أُريد تحريك رأسي لأرى مصدر النور، والعالم المحيط بي، غير أن رقبتي كانت متصلبة مثل الخشبة. كنت لا أرى غير الوجه المستدير، وخطوط طويلة قمحية اللون، تمتد فوق رأسه. كنت في عالم مرتجف حاد. وتخيلت أنني أحلم. ووددت أن تنتهي هذه الحال المحمومة بسرعة. ورأيت الوجه المستدير يتمطى ثانية. ثم يناديني باسمي. فتحت عيني جهد مستطاعي. وكان جفناي متصلبين مثل العظم. وأحسست بالوجه يتحرك، ثم انتصبت أمامي جثة ضخمة تدلى منها كرش. وخيل إليَّ أنني أعرف صاحب الصوت. كان يكلم شخصاً آخر بجانبه ولم يكن غريباً عليَّ. ومع أنني كنت أسمع من أذن

واحدة ، الوشوشة لم تنقطع ، فقد أدركت بعض ما يقوله . كان يتحدث عني . كان يشير بيده إليَّ ، كان يذكر اسمي ، واسم والدتي وأخي ، ورأيته ينحني عليَّ ، ويسألني عن حالي الآن . فلم أجبه إلاَّ في سري . كان فمي معطلاً عن الكلام . فعاد مرة أخرى يمطي وجهه ، ورأيت في فمه بعض الأسنان . وكان صوتاً عميقاً وحاداً ومثيراً لأعصابي . ورأيته يرفع حاجبيه حتى استطال جفناه ، ويقرب وجهه من وجهي ، ويجس جبهتي باردة ، ويقول « علوان . . إشلونك؟ . . » ثم « آني محمود أبو صبيحة يعني متعرفني؟ » وابتسم . وكان النور الاصفر يقترب مني ، ويجعل الأشياء مجسمة . ورأيت محمود يلتفت وسمعت صوتاً نسائياً يخاطبه . فقلت في نفسي . . هذه صبيحة . وحاولت أن أرفع رأسي ، غير أنني لم أستطع . وكان كل شيء يبدو كبيراً ومتورماً حتى تلك الأعمدة الخشبية القمحية اللون ، الممتدة فوق رأسي . حركت شفتي وطلبت ماء . فغاب محمود وتركني وحدي . فأبصرت ضوء الشمس الأصفر يزحف على سريري وبدأت الغشاوة والضوء يتماوجان ، وأطل عليَّ وجه صبيحة يسبح في ضوء الشمس ، ويقطع العمود .الأزرق القادم من يميني . وكانت ضفيرتاها متدليتين عليَّ من خلف اذنيها ، وشفتاها تبتسمان . فقلت في نفسي « هذي مو صبيحة » . فقد بدت مثل طفلة . وخجلت أن أكون ضعيفاً أمامها على هذا النحو . وكانت عيناها الواسعتان تحدقان بي ، وتطلان عليَّ من فوق ، وتبعثان في نفسي إحساساً بأنني أحلم . حركت يدي ، أمسكت بضفيرتها ، وداعبتها ، فهزت رأسها ، وتأرجحت الضفيرتان ، وتحركت شفتاها . وجاءني محمود بالماء ، ورفع رأسي عن الوسادة ، وعندما شربت الماء أحسست بشيء من الراحة . وكان محمود وابنته يرقبان تحرك شفتي ، ثم رأيت الضفيرتين تقتربان مني

حتى ارتخى بعضها على صدري. ومست صبيحة جبيني بيد طرية وقالت « سور سليمان.. ». وكان صوتها خافتاً، وناعماً. فسألتني أن تأتي بماء لأغسل وجهي، ولأزيل هذا العالم المرتجف المحموم من عيني. فتحولت عني. ورأيت ثوبها الأحمر ذا الورود يسطع في ضوء الشمس، وضفيرة واحدة كانت على ظهرها. وجاءتني بماء دافىء، ومنشفة، وغسل محمود وجهي بكفه المتصلبة الراحة. وشعرت بلفحة هواء تهب على وجهي. ثم استطعت أن أحرك جسمي قليلاً، فرأيت الغرفة كلها. هذه غرفة أخي. أمسكت برقبتي، فأحسست بها مربوطة، وكذلك الجزء الأعلى من كتفي الأيمن. فقلت لمحمود « منو داواني ». فابتسم. ورأيته يجلس على حافة السرير. وكنت أنتظر الجواب من شفتيه. فقال في ثقة:

- « عمك محمود!.. يعني بس نزين روس الناس؟ »

- قلت « هسه يحمل الجرح »

غير أنه هزّ رأسه وقال بصرامة:

- « لا تخاف.. أنتم أولاد المدارس على الله ماترضون.. »

وتحول إلى ابنته، وهو يهرش جسمه. وعلى مقربة مني كانت صبيحة تفتح ضفيرتها، وتضفرها من جديد، واضعة المشبك بين أسنانها. وبعد ذلك ساد الصمت. ثم جاء الذباب وبدأ يطن. وداخل رأسي طنين مثله. والشيء المؤلم إنني لا أستطيع تركيز أفكاري. أنا محموم.. حمى موجعة. بالأمس رأيت أُمي ذاهبة إلى المستشفى حافية القدمين، والدنيا مطر، وعيناها رمداوان. وعند العصر كانوا بانتظارنا. مَنْ دلهم على مكاننا؟.. جواسيس.. خونة ضعاف النفوس.. ما إن ابتعدت عن أصدقائي مسافة حتى سمعتهم يأمرونني بالوقوف « أوكَف.. لو أضربك » كانوا يحدقون باصدقائي

الآخرين . . بعد أن هرولت مسافة .

والآن رفت عيناي فأغمضتهما . وكان الظلام من خلف جفني المقفلين وفي حواشيه احمرار ، ووسط الظلام رأيت أعمدة بيضاء ترتفع وترتفع . ومعها يرتفع قلبي حتى خفق خفقاناً مرعباً . وتملكني خوف . ولما فتحت عيني رأيت محموداً يعود إليَّ ويقول :

ـ « شلناك على ظهرنا »

فصحت به :

ـ « عمَّ تتكلم . . »

فقال :

ـ « عن الناس . . عن الطيبين . . شافوك وقعت وشالوك حتى ليلزموك . . وختلوك بدكان محسن المزين » .

وقلت في نفسي « هذا شعبنا . . أولاد حمولة »

وقال أبو صبيحة :

ـ « ما يستحون . . يريدون يقتلون هالشباب الحلوين . . »

وكانت الشمس قوية . والبارحة جانت الدنيا تمطر . غير أن عباس قال « الله ويه الشعب . . باجر لازم تصحى » . وضحكنا آخر الإجتماع . كانت صورة جعفر أبو التمن تطل علينا ، وامرأة تحمل طفلتها وبيدها غصن زيتون .

حاولت أن أفتح عيني أكثر من ذي قبل . وأوسعها وأُزيل ما لصق منها . كان فيها رمض . لعلني أرمد مثل أُمي الرمداء . والآن أخذت الشمس تنزلق على صدري ، قادمة من جهتي اليمنى ، والغرفة واسعة ، وجسمي ما زال حذراً .

قلت لمحمود :

ـ « جسمي محلول . . »

فقال :

ـ « البارحة كنت تقول كتفي مخلوع.. بينما الرصاصة خدشت رقبتك خدشاً.. والناس وقفوا لك حراساً.. وأنا بالآخر ضربتك إبرة مورفين ».

البارحة كانت الدنيا رذاذاً. وعباءات سود تركض.. أوكُف.. ما أوكُف.. لو تطلع روحهم ما أوكُف. ثم جاءت الرصاصة وارتطمت. وكأنها دخلت في أذني.

آه.. لو يزول هذا الألم من رأسي.

ـ « عمي محمود.. لماذا الافيون؟.. »

ـ « أفيون؟.. ما هذا الكلام؟.. مورفين »

ـ « أي مورفين ».

ـ « كنت تصرخ من الوجع.. »

أظنه يكذب. أنا لم أبك حين خرقت كفي رصاصة في باب المعظم. والناس كانوا يتساقطون من حولي.. والدنيا دخان أزرق، ودم.

توكأت على يدي اليسرى، واعتدلت في جلستي. والغرفة كلها شمس. وبالامس كانت الدنيا سوداء.. وكان عباس يلعب بشواربه. وكفه كانت مهشمة الأظافر. رأيتها مشوهة قاتمة اللون فلو أدخلوه الآن في سراديبهم فماذا يهشمون منه. ولكن الثلاثة الآخرين لهم أظافر. ولو تأخرت لحظة لكنت الآن معهم. ولكن لن أعطيهم شيئاً. بمقدساتي لن أعترف.. فليقلعوا أظافري، وشعري.. ولكني لن أعترف.

وفي عيني عباس رأيت البارحة إصراراً. وكانت خالته تقدم لنا الشاي وتقول في صوت خافت « محروسين بالله.. » وفي الغرفة رأيت

كتباً ومزهرية، وخريطة العراق. وصورة أخرى في طيات أحد الكتب.. ورفاقي كانوا متحمسين. وفي الليلة الماضية باتوا في السراديب. غير أنهم لن يعترفوا.. لكن لو اعترف أحدهم.. لا لو؟.. لا.. لو اعترف.. فرضاً؟.. هذا شيء شنيع.. هذه مذبحة..

٢

واعترتني رعدة. وكان محمود يحدق بي. وابنته تجلس على الأرض واضعة يدها على خدها. فسألته عن الساعة.. فقال: تسعة تقريباً.

لو ذهب أحد إلى إبراهيم، ونقل له الخبر لربما استطاعوا عمل شيء. بالامس قال لي سأظل في البيت حتى الحادية عشرة. واتفقنا أن نلتقي في الساعة الثانية عشرة إلا ربعاً. ولم نكن نعرف أن الأمور تتعقد بمثل هذه الصورة.

قلت لمحمود:

ـ «أُريد أن أبعث صبيحة..»

قال: ـ «أين؟»

قلت «هي تعرف البيت..»

وكانت صبيحة تستمع لحديثنا. فأقبلت عليَّ وقالت «تؤمر عيني». فطلبت إليها أن تذهب إلى بيت إبراهيم بالبتاويين، فأومأت برأسها. وذهبت ترتدي عباءتها. ثم جاءتني بورقة وقلم. وبصعوبة كتبت سطرين. وبعد قليل سمعت بكاء طفلها يريد الذهاب معها. وخلت الغرفة. وران الصمت. وكانت معي الشمس الدافئة والهواجس. غير أنني شعرت بنوع من التحسن في حالتي. وكانت رأسي مثل طبل قرع منذ زمن، وبقيت وشوشة خافتة. ومن الزقاق سمعت أصوات الباعة المتجولين. في محلتنا بالكرخ تجلس

بائعة الباقلاء ، وتنقع الرغيف بأربعة فلوس . وأُمي في المستشفى لا تستطيع اليوم أن تنقع رغيف الخبز .

وفي المستشفى رائحة غريبة ، وموتى وأنصاف موتى ومشرحة . وأنا ما أزال محموماً . لو مت البارحة لنقلوني إلى المشرحة ، أُمي ليست لها عينان سليمتان لتبكي عليَّ . لعل رفاقي بالأمس قضوا ليلة مرعبة . . في السراديب . . هذا شيء أكيد . سيجردونهم من ملابسهم ، ويصبون عليهم الماء البارد . . ثم يقولون لهم ماذا كنتم تقولون في الاجتماع؟ . . ماذا تريدون؟ . . تحاربون الحكومة . . مخابيل . . أنتو زعاطيط . . شمعرفكم بالسياسة؟ ويقولون لهم كلاماً بذيئاً . وذات مرة شتموني في موقف الكرخ بإقذاع . وكان معي في غرفة واحدة لص وثلاثة متهمين بإدارة بيت للدعارة . وكنت ذاهباً إلى الكلية لأداء امتحان في الأدب الحديث . وفي المساء جاءت امرأة حلوة تعلك علكاً ، واخرجت الثلاثة ، وبقيت أنا واللص .

لعل صبيحة الآن وصلت إلى إبيت إبراهيم . في الساعة الثانية عشرة إلا ربعاً كان علينا أن نلتقي . ومعنا الشعارات . وفي الساعة الثانية عشرة ننطلق . فلو اختبأوا لنا خلف الاسوار تحصل مذبحة . سيطلقون النار علينا بشدة ، ويفتكون بنا . وفي حادثة باب المعظم كنا نتقدم رغم الرصاص . وكانت يد علياء ملطخة بالدم . ومحسن وقع على مقربة مني . ولم أسمع ماذا قال . ثم خرج الدم من فمه ، وسال من طرف شفته . ورقد على الأرض . ولو اختبأوا اليوم خلف الأسوار . . لو أن أحداً قال شيئاً عن المظاهرة ، وأنا هنا ، والشمس تزحف على اللحاف . ماذا أقول لهم؟

عادت صبيحة ، ورمت عباءتها . وقالت « ماكو أحد بالبيت » ثم ناولتني الرسالة مطوية . قلت لها « لو انتظرت قليلاً . . كان

شفتيه ». قالت « بيتهم مقفول.. » ورأيتها تهز رأسها كالولهى. وكأنها أحست بمصيبة. وقالت « اروح اينما تبعثني.. أروح » وكان صدرها الجميل يعلو ويهبط. ثم حدثتني عن زوجها قائلة « الصبح كان أخوك يلعن نوري السعيد، وأبو اللى جاب نوري السعيد ». وكانت تتكلم بشفتين لامعتين، ويدها تتكلم معها. وقد بدت لي مرتبكة، وحلوة جداً، أهدابها رفت كجناحي فراشة. فشعت فرحة في نفسي. ولم أجد بدا من الخروج. أُريد أن أراقب الأمر بنفسي. أُريد أن أمنع كارثة. وحالتي الآن جيدة.

صاح بي محمود:

- « ستقتل نفسك ».

وكان يجلس على صندوق ويبربر. والحياة بدت لي مسرعة. وصبيحة كانت أشجع من أبيها. واقتربت مني، ونظرت إليَّ بعينين سوداوين جداً. كأن بهما كحلاً. فقلت في نفسي « الحياة حلوة.. ». ورأيت محموداً يرفع إليَّ عينيه الجاحظتين، ويتقدم نحوي. وكنت أعرف أنه سيثور. وقال لي « جسمك حار » بعد أن مس جبهتي، وشعرت بقشعريرة في ظهري.

نهضت من السرير. هذا سرير أخي. لقد أضجعتني صبيحة وأخي على فراش عرسهما. وكانت رجلاي رخوتين. فسرت بتمايل. ورأيت الدنيا تلف بي. ما يزال المورفين يسري في دمي. وكان محمود يقف أمامي مثل الجاموسة، يريدني أن لا أذهب. فأحسست به ثقيلاً كريهاً. وكان يلف على رأسه عمامة ترخى على جبهته. ويضع يده في حزامه المتدلي منه كرش كإلية خروف. وقال لي:

- « سيلزموك.. »

- « راح أمشي بالدرابين ».

ولم يقتنع. رأيته يلتفت إلى بنته، ويتحدث إليها عند باب الغرفة. وجاءت صبيحة إليَّ ولهى. وقالت « فدوة أروح لك لا تطلع بره.. خلي أبويه يروح.. » قلت لها «لا تخافي ». وتوكأت على كتفها. ورأيتها تصفق كفا بكف. ثم جاءتني ببنطلون، ومعطف أخي قائلة « ثوبك كله دم.. » وساعدتني صبيحة في ارتداء ملابسي، ووضعت الكوفية على رأسي.. وخرجت.

٣

في الخارج كانت الشمس أشد سطوعاً، وأرض الزقاق ما تزال مبتلة بماء المطر، ونسمة شباط باردة. وعلى باب الزقاق أبصرت بعض الناس، وبائع شلغم. وكنت أسير ببطء ومع ذلك فقد كنت أحس بأن رقبتي تهتز. وكأن الأرض مليئة بالحفر. وكان رأسي يؤلمني ألماً شديداً. والجرح يوخزني وخزاً متواصلاً. وتمنيت أن أمنع رأسي من الحركة وأمسكه بين يدي. في كل حياتي لم يكن رأسي بمثل هذا الثقل.. أواه ليتني أستطيع التخلص من رأسي.

رأيت ساعة الساحة مقابل الجسر الجديد تشير إلى الحادية عشرة وخمس دقائق وكان الناس في الساحة كثيرين. وخيل إليَّ أن بينهم من يراقبني. لو أنهم أبصروا بي الآن لأدخلوني مع رفاقي في السرداب. ثم ان المذبحة ستقع. وفي سراديبهم سينزل عدد آخر تضيق به السجون. في الانتفاضة اضطروا إلى إخراج النشالين والمجرمين من المواقف، وحشروا في محلهم الطلبة والعمال والمحامين. وكان موقف الكرخ نتناً، فيه مرحاض مكشوف، ونوى تمر قديم، وحشرات تلتصق بالجسم، ولا تخرج منه. وفي الليل كان الهواء ثقيلاً. والجميع كانوا يشخرون، ويتنفسون جيفة. ولو كنت هناك لما

عالجوا جرحي، ولظل الجرح يتنفس جيفة. ويتقيح. وتبدأ الحياه بالتسمم. ولكنني الآن أسلك أزقة ضيقة حتى لا يروني. والبيوت من حوالي معتمة تتغلغل الرطوبة في جدرانها. والشمس في تلك الأزقة ليس فيها دفء ولا تألق. كنت أحس بالدنيا من حولي غير متماسكة. وكثيراً ما رأيت الجدران تهتز، والأرض تتثنى من حولي مثل حصيرة قذرة. وفي بعض الأحيان كنت أرى الجدران حبلى، ومتعرجة وبالقرب من الميدان جاشت نفسي. وأردت أن أتقيأ. وشعرت باللهب يسري في أوصالي.. وببقايا الافيون.. أقصد المورفين. وكانت باب المعظم على مقربة مني تسطع في ضوء الشمس. والسيارات الحمراء تملأ جوانبها. سرت من وراء بناية مصلحة نقل الركاب، في الزقاق الموصل إلى مدخل شارع غازي. وسلكت الطريق الضيق المفضي إلى كلية الآداب. في إحدى الغرف في الطابق الثاني يؤدي زملائي امتحاناً. وأنا أؤدي امتحاناً الآن. ورأيت شارع نوري السعيد قصيراً يتلوى كالافعى.. تلك المنطقة سأراقبها من بعيد. تلك المنطقة سيتجمع فيها الطلاب. وفي الساحة كان كل شيء هادئاً. مر بي شيخ يلبس كشيدة، فسألته عن الساعة، فقال الساعة ١٢ إلا جارك. وأمامي كانت ساحة قذرة. وفي الجهتين اليمنى واليسرى أسوار. لعلهم الآن مختبئون هناك. وبنادقهم مهيأة للقتل. ولم أر أحداً أعرفه. لا أحد من الناس. وفي الجانب الآخر رأيت شرطيين يأكلان الفشافيش. ويبدوان منصرفين عن العالم كله. ليت كل الشرطة مثلهما! وما خلا ذلك كان كل شيء هادئاً. وأحسست بالدنيا تدور بي مرة أخرى. مشيت في الطريق الموصل إلى كلية التجارة. وعلى الرصيف رأيت بائع شاي وأربع صفائح فارغة يستعملها ككراس. وفي محلتنا يبيع حسن العجمي

الشاي ، ويتعاطى الأفيون . وأنا أكره هذا السم وأكره الشاي الخالي من السكر الذي يشربه . وتمنيت أن أجلس في الشمس الدافئة حتى تكف ركبتاي عن الارتعاش . تمنيت أن أرقد على فراش . تمنيت أن أرى أُمي غير دامعة العينين . أن أرى صبيحة تفك ضفيرتها ثم تضفرها مرة أخرى ، وفي فمها المشبك . وبعد قليل رجعت إلى الساحة . كان كل شيء هادئاً . تلك الأسوار تخيفني . مرت بي سيارة جيب ، وسيارة لوري . في المظاهرات تمتلىء اللوريات بالشرطة ، والعصي والبنادق . والآن كل شيء هادىء . وأنا أخاف من الهدوء . في معتقل أبي غريب كان الليل زمهريراً . والسراديب في غير أوقات التعذيب هادئة . ولعل الساعة قاربت الثانية عشرة . وكانت الساحة خالية . مو معقول راح تصير مظاهرة . لم ألحظ أحداً من أصدقائي . والطلاب الذين رأيتهم يخرجون من كلية الهندسة على يميني اتجهوا إلى الشارع المقابل لكليتهم . ولم يقتربوا من المنطقة . رأسي دايخ ، والدنيا مضطربة ومحمومة . والناس قليلون جداً . وفي المستوصف المركزي رأيت الساعة الثانية عشرة وست دقائق . والشمس ترقص . وقلبي يخفق خفقاناً مزعجاً . والدفء يخدر جرحي . والشرطيان رأيتهما يشربان الشاي مثل بقية الناس . طوفت ببصري في جميع أنحاء المنطقة لآخر مرة . كان كل شيء هادئاً . وكان شارع نوري السعيد في تعرجه مثل سلسلة مهشمة . ورجعت إلى باب المعظم ، سالكاً الطريق العام هذه المرة . لو أنهم رأوني الآن فلا أهمية لذلك . أنا محتاج إلى راحة . وأعصابي محطمة . ولكنني سألزم الصمت في سراديبهم مثل رفاقي الآخرين . ولن أقول شيئاً . وفي وحدتي سيؤنسني وجه أُمي ذو العينين الرمداوين ، وضفيرتا صبيحة ، ورفاقي في الخارج ، وصورة المرأة التي تحمل طفلها ، وفي يدها غصن

زيتون، والصورة الموضوعة بين طيات كتاب. وكانت ساحة باب المعظم مليئة بالسيارات، والناس والشمس والهواء الطلق والحياة الحلوة. وأنا أُريد أن أعيش دون خوف ولا مرض وعند بداية شارع المستشفى رأيت بعض سيارات الشرطة تدخل شارع الرشيد. أين يذهب هؤلاء؟ لماذا لا يذهبون ليشربوا الشاي؟.. وكان جرحي ينبض مثل قلب جديد. والمنتظرون عند المحطة كثيرون. فانتظرت معهم. لو أصل إلى البيت لأقبل عمي محموداً، وأشكر صبيحة، وأنتظر مجيء أخي..

إنتظرت مجيء السيارات وقتاً طويلاً.. يا ربي.. متى تأتي هذه السيارات؟ عيني انقفلت. لو تأخرت دقيقتين البارحة لما كان في ميسوري إنجاز أي عمل. ثم ان عمي محموداً صار عصبياً عليَّ بالبيت. لا أنا صرت عصبياً عليه.. لا.. هو.. الحقيقة أنا صرت عصبياً. لو أن الرصاصة نفذت إلى رقبتي لما عرفت اليوم بما جرى.

وتنبهت إلى صوت يقول: المرور مقطوع بشارع الرشيد. ثم رأيت أحد بائعي التذاكر يهرول قادماً من الجهة الثانية، ويقول لمأمور المحطة: الدنيا مقلوبة.. المظاهرة بجامع مرجان.. وهوسه.. واقتربت من المتكلم دون إرادتي. كان شاباً نحيلاً. غير أنه كان يتكلم وكأنه أحد المتظاهرين. وقبل أن أُكلمه سمعت صوتاً محتداً ينبعث من غرفة المراقبين.. اشدعوه مخبوص بها الشكل؟.. ورأيت بائع التذاكر يهز ذراعيه بعصبية. ويهز رأسه هزة مضحكة. ثم يسير نحو الجهة الثانية من الساحة قافزاً كالأرنب. والركاب بدأوا يتحدثون بصوت عالٍ. ثم تفرقوا. وصار معظمهم في شارع الرشيد وبعد لحظات خيل إليّ أنني أسمع صوت طلقات. وكانت ركبتاي ضعيفتين فغالبت نفسي.. وذهبت.

١٩٥٧

حلال العقد

إنتظرت خروجها في الصباح. كنت أحمل كتبي المدرسية وبنطلوني الطويل وأنتظرها. وكان البرد يخشب ساقيّ العاريتين، وينفذ من خلال القميص الخفيف إلى صدري. كنت أُريد أن تخرج لترى هندامي الرياضي، السترة البيضاء، والبنطلون الأسود القصير، والحذاء المطاطي، وتوقن بأنني، أنا أيضاً، رياضي وذو قوام رشيق. قفزت على البقعة لأقنع نفسي بذلك وأتدفأ. وانقضت نصف ساعة من اللهاث. ومرت حبيبتي على بعد خطوات مني. القت عليَّ نظرة خاطفة خيل إليَّ أنها تحمل اشمئزازاً أو عدم اكتراث على الأقل. ولما تمالكت شعوري كانت قد اختفت في المنعطف. ضربت الأرض بقدمي بقوة آذت أخمصي. هكذا أُجازى إذاً بعد نصف ساعة من الإنتظار الراجف؟ كدت أبكي. لكن تعذبني تلك الفتاة. في البيت كنت أبكي في حجرتي حرقة وتدلهاً لها. وكان ليلي أطول من صبر أيوب. وفي الصباح أتلهف لرؤياها فأُصاب بنكسة وغصة في قلبي.

ركضت عبر جدار المعمل إلى مدرستي حنقاً وتدفئة. وقبل أن أصل إلى شارع الكيلاني ارتديت بنطلوني الطويل، وبلوزي، وذهبت إلى مدرستي مكسور الخاطر لم أفهم من الدروس الثلاثة شيئاً. كنت أفكر بها، واختلق لبرودها الأعذار. وفي الفترة الأخيرة جلسنا في حجرة الدرس. حبسنا فيها البرد وسوء الجو. وكانت الحجرة في سرداب طويل يطل على فناء المدرسة المكشوف

المضبب برمادية الغيوم المتراكمة. وأطل علينا طالب من باب الحجرة وقال:

ـ لماذا لا توقدون الضوء؟.. هل أنتم في الجبهة؟

أجابه طالب ثانٍ:

ـ لا، ننتظر أن تشتغل السينما.

قال الطالب:

ـ قلت لك إن المدرس لا يأتي اليوم. مطر ودراجته معطوبة.

قال الطالب الثاني:

ـ الله يسمع من فمك. أشتهي أن آكل صمونا وعنبة قرب سينما غازي.

ـ عظيم ـ قال طالب ثالث ـ أتعرف أي فلم في سينما غازي؟

أجابه ثلاثة طلاب مرة واحدة:

ـ إخوان كورسيكا.

ـ أموت على كورسيكا. هذه هي السيوف ولا سيوف بدرلاما.

وتسريت قليلاً. وغبطتهم على خلو بالهم.

صاح الطالب المطل من الباب:

ـ راح وقت السيوف. الآن سلة ملطوف.

قال زميلي الذي يشاركني في رحلتي، وكان حتى الآن صامتاً إلى جانبي:

ـ في أي سينما؟

ـ كيف أي سينما؟.. ألا تعرف ملطوف؟

قال زميلي في نفي قاطع:

ـ لا.

ـ وهتلر؟

ـ سامع بيه؟
ـ وستالين؟
ـ أيهما، أبو شوارب أم أبو جروت؟
قال الطالب في كبرياء:
ـ ماذا تعرف من الدنيا إذاً؟
أجاب زميلي وهو يجاريه في كبريائه:
ـ أعرف آرسين لوبين.
سأل الطالب:
ـ من هذا؟.. ملك أو قائد جيش؟
ـ لو جعلوه لرفض.. يفتح أكبر خزانة بدقيقة واحدة.
ـ يعني حرامي.
ـ أحسن. نحن نعرف حراميتنا. قبل أن يدخلوا البيت يوقظون كل أهله.

صاح المراقب وكان يخط اسم الدرس على السبورة:
ـ عندنا درس دين. فلا تتحدثوا عن الحرامية.
أخرج زميلي كتاباً من رحلته، ولوح به للطالب.
ـ هل قرأت هذا الكتاب؟
نزل الطالب درجات السرداب وقال وهو يتقدم نحونا:
ـ الليمان العائم؟.. ما معنى الليمان؟
قال زميلي:
ـ يعني باخرة.. يسلخون وجه رجل في باخرة ويلصقونه على وجه شخص آخر. يا للروعة.
جاء بعض الطلاب إلى رحلتنا ليروا الكتاب. فاغتاظ الطالب

وذهب إلى رحلته، وجلب من هناك كتاباً أحمر الجلد. وقلد زميلي في لهجته:

- هل قرأت هذا الكتاب؟

قال زميلي:

- مشكلة التموين؟.. وماذا يخصنا من مشكلة التموين؟
- كيف لا يخصنا؟.. أتعرف لماذا تكون مشكلة التموين؟
- لأن السوق فارغة.
- ولماذا فارغة؟
- لأنها مملوءة حرامية.

قال الطالب:

- لا. أنظر. لو أن عامل أحذية يشتغل في مصنع للأحذية فيصنع كل يوم حذاءين...

صاح المراقب:

- لا تتحدثوا عن الاحذية.. عندنا درس دين.

قال زميلي:

- أنا لا أفهم في الأحذية.

قال المراقب:

- قلت لا تتحدثوا عن الأحذية.

قال الطالب:

- بماذا تفهم إذن؟
- بأرسين لوبين. مثلما يفهم مهدي بآلام فرطر. تمام مهدي؟

كان يسألني. كنت وراء ظهره أوسد ذقني براحتي، وأنقل بصري بين المتجادلين، ولا أشترك في الجدل. كنت لحظة معهم وثلاثا هناك. فلما باغتني السؤال ثبت بصري به قليلاً، وبسطت يدي في

حيرة لا أعرف بماذا أرد وأنقذني الجرس. وكان مراقبنا صارماً صرخ بالواقفين أن يجلسوا في أماكنهم حالاً وأن يكفوا عن الكلام غير اللائق بدرس الدين.

إلاَّ أن مدرس الدين لم يحضر. أغلق المراقب باب السرداب علينا وأنار المصباح. وبقينا نترقب المدرس في وجل. كان رجلاً بديناً بطيء الحركة لا يسلم الجالسون في الرحلات الأولى من لعابة المصنوع من التبغ. وكان يخاف المدير خوف الحية، ويوصينا بأن نغلق الباب ما ان يدق الجرس. وحين يصل ينقر الباب بأطراف أصابعه نقرات خفيفة فلا يشعر المدير به. وكنا لا نتمسك بوصيته إلا بقدر ما فيها من فكاهة. تارة نتركه ينقر الباب طويلاً، ثم يدقه بجمع يده وينادي، ولا نفتح الباب إلا حين نسمع صوت المدير خلف الباب. وكان ذلك يناسبنا إذ إن المدرس يقضي نصف الدرس عابساً غارقاً في جهامة تفكير. وتارة أخرى نسد الباب دقيقة ثم نفتحه على مصراعيه.

والآن فعلنا ذلك. بعد دقيقتين قال زميلي المعجب بأرسين لوبين:

- هه. مرت خمس دقائق.

قال المراقب:

- إسكت. مرت دقيقة واحدة.

واحتجت أصوات على المراقب فأسكتها، ثم عادت تضج فلوح لها وأخيراً اضطر إلى فتح الباب. وكان المدير في شرفة الطابق الثاني، فلما رأى المراقب سأل:

- ألم يأت مدرسكم؟

- لا، أستاذ. مدرس الديانة غائب.

نظر المدير إلى ساعته. وبعد أن ذرع الشرفة عدة مرات أشار الينا بأن نخرج في هدوء مثنى مثنى.

ورأيتني وزميلي في الشارع. كنت لا أُريد الرجوع إلى محلتنا. لا أُريد أن أرى وجه محبوبتي هذا اليوم. كانت الغيوم قد أخذت تنقشع، وبدت رقعة زرقاء كبيرة باتجاه الباب الشرقي. وبدت الدنيا وكأنها توشك أن تضحك. وغمرني إحساس بأن السلوى مع السحاب المتقطع. قلت لزميلي:

- دعنا نتمشى، فاليوم اثنين.

قال زميلي مرحبا:

- لطيف. لعلي أجد روايات جيب عند سينما غازي.

أدهشني هذا الغرام الشديد بروايات كنت أخشاها وأراها مملة وبلا شاعرية. فسألت زميلي وقد عبرنا بركة ماء المطر أمام مدرستنا؟

- صبيح، لماذا تحب روايات الجيب؟

نفض صبيح الطين من حذائه وقال:

- لماذا أُحبها؟ ولماذا يحب الناس دخول السينما؟ لماذا يحبون رؤية أماكن كثيرة؟ للفرجة، واكتشاف شيء جديد. الدنيا كلها فرجة. وروايات الجيب تريك الدنيا. وأنا أُحب أن أرى العالم كله، كل المدن والشوارع والانهار. وأنت لماذا تحب آلام فرتر.

لم أطرح على نفسي هذا السؤال عندما صار آلام فرتر كتابي المفضل...

قلت:

- كلام حلو. عندما أقرأ آلام فرتر أبكي.

قال صبيح:

ـ أما أنا فلم أفهم منه شيئاً. عندما أخذته منك قرأت منه صفحات ولم يعجبني. ليس فيه إلا قلبي وروحي وكلمات زائدة...

قلت:

ـ لو قرأته كله، لرأيت كم الحب جميل.

قال صبيح وهو يتخطى سيل ماء ينصب في البركة الكبيرة أمام مدرستنا:

ـ بل الحب قاتل. العشاق يموتون جميعاً. أنظر إلى مجنون ليلى، وروميو وجوليت. ولماذا يقتل الإنسان نفسه؟

قلت:

ـ ليس الحب قاتلاً دائماً.

قال صبيح بإصرار بغيض:

ـ الحب الصحيح يقتل.

ـ لا.

ـ يقتل ويمرض.

وزفرت وأنا وراءه وصدقت به. أنا موشك أن أموت حباً. وعجبت من أمر هذا الفتى الذي يقرأ روايات العصابات، ويفهم بالحب فهم أكبر عاشق. وقلت لنفسي هل أبوح له بسري؟ ربما يرشدني إلى حل. وشممنا رائحة شلغم دافئة تحاشيتها لكيلا أقطع حديثنا.

قلت:

ـ لكن الحب ليس بيد الإنسان. متى أراد أحب، ومتى أراد لم يحب.

قال صبيح في حكمة زادت دهشتي:

ـ الحب مثل تدخين السيكارة. الكبار يشربون كل ساعة سيكارة.

والصغار يأخذون علبه التاج الذهبي ويدخلون السينما ويدخنونها كلها قبل انتهاء الفلم. أتريد أن تأكل شلغم؟

كانت عربة الشلغم أمامنا. وأكلنا الشلغم صامتين. وكنت أفكر كيف ألحم حديث الحب الذي قطعه بخار الشلغم. قلت في مجازفة:

- طيب، وإذا وقع الإنسان في الحب، كيف يخرج منه؟

- إذا كان يعرف كيف يقع فيه، يعرف كيف يخرج منه.

- وإذا كان لا يعرف؟

- أوه. أهذه مشكلة تموين أخرى؟ وماذا يهمك من هذا

قلت كالهامس:

- لأنني واقع.

دحرجت هذه الجملة، ونحن نهم بعبور شارع غازي مقابل سينما غازي. دحرجتها عمداً في ذلك الوضع بالذات لأتفادى الإرتباك. ولكن زميلي توقف وسط الشارع غير عابيء برتل من سيارات الجيش الإنكليزي مرت أمامنا خطفاً. ونظر إليَّ في دهشة اختلط فيها الحزن والفرح وكأنه يقول «هذا أول عاشق في الدنيا أراه حياً». وتوقعت أن أسمع شيئاً موجعاً عند وصولنا إلى الرصيف الثاني. إلا أن في الرصيف الثاني كان بائع كتب قديمة يفرشها على الأرض.. روايات جيب صرفته عن كل شيء. روايات جيب بأغلفتها الملونة، ومسدساتها ونسائها الاجنبيات. وقرفص أمامها. وأخذ يقرأ عناوينها بتلذذ وصوت مسموع وكأنه يعدد أسماء أصدقاء أعزاء عليه: «ارسين لوبين في الكهف، العقد المفقود، اللص الظريف، المسدس الصامت، ذو القناع الأسود». مرر عينيه بلهفة على صف الكتب المغلفة والمنزوعة الأغلفة. وقال في مزيج من الأسف والاعتزاز:

ـ قرأتها كلها. وأروعها ارسين لوبين في الكهف. آه لو تعرف كم هي لذيذة. يذهب إلى بيت ليفتح خزانته فتنخسف به الأرض، ويقع في كهف، مثلما وقعت أنت في الحب.

وابتسم، ونظر إليَّ في مرح مشرق وسألني:

ـ صحيح، مهدي؟.. تحب؟

هززت رأسي لأن حلقومي كان جافاً. ورأيت في عيني صاحبي نداوة غريبة. وسأل:

ـ والمحبوبة؟

قلت وأنا بعد لم أسترد أنفاسي:

ـ فتاة من المحلة.

ـ يعني روميو وجوليت وما أدرى؟

وأحسست بنشوة طافحة. ومرت في خيالي محبوبتي وكأنها تبتسم لي بعينيها نفس الإبتسامة التي رأيتها ذات مرة فكانت فجر غرامي.

ودفعتني قوة إلى أن أبوح له بكل شيء. قلت ونحن ندخل حديقة غازي:

ـ ولكن يوجد شخص واقف في الوسط.

ـ من؟.. أبوها؟

ـ لا أبوها ولا أُمها.. بل شخص تحبه أكثر مني.

قال صبيح:

ـ يعني مثل السينما تماماً. روميو ومجنون ليلى. كلاهما كان له شخص آخر ـ ثم عاد إلى تخوفه ـ القصة إياها. ألم أقل لك إن الحب يقتل؟

قلت في لوعة:

ـ ولكن ليس بيدي.
ـ أتحبها كثيراً؟
ـ كثيراً كثيراً. البارحة بكيت كثيراً. فلما سألتني أُمي لماذا أبكي بهذه الحرقة قلت لها سقطت في الامتحان.

قال صبيح بصوت خافت:

ـ السقوط بالإمتحان أهون بالف مرة.
ـ وفي الليل لا أنام.
ـ هذا هو العشق بالضبط. مجنون ليلى بلا لحية.
ـ كانت جملة قاسية فلم أقل شيئاً. وبعد صمت قصير قال لي:
ـ الحق على نفسك.
ـ لماذا؟
ـ قبل أن تكمل القصة.
ـ كيف تكمل؟
ـ سيقع أحدكما. والظاهر أنت الذي ستقع.

وسألت في ضراعة:

ـ ولكن. كيف؟

ضرب صبيح حصاة اعترضت طريقه وقال:

ـ إقرأ روايات الجيب.
ـ بالله، صبيح، لا تضحك مني.

قال صبيح بلهجة جادة:

ـ لست أضحك منك. مثل هذه الكتب هي التي تعلمك الخروج من كهف الحب مثلما خرج ارسين لوبين في براعة. ولا فائدة من فرتر ولا روميو ولا مجنون ليلى. لو كان في رأسهم خير لحصلوا على محبوباتهم، ولما قضوا حياتهم بالبكاء والأنين، وبعد ذلك انتحروا.

قل لي بربك ماذا يعلمك هؤلاء؟ روميو يصعد من الشباك إلى محبوبته، ويقضي الليل بالآه والأنة، ولا يأخذها إلى بيته. ومجنون ليلى يبكي وينظم الأشعار ومحبوبته إلى جانبه حتى تحترق يده، ولا يخطفها من الخيمة. ثم لماذا لم يقع ارسين لوبين في الحب طول حياته؟ لأنه أول ما يتعرف إلى امرأة تعجبه ينزع منها قلادتها، ويجعلها تركض وراءه. ولو أحببت أنا لفعلت نفس الشيء.

- يعني تسرق قلادة محبوبتك؟

- ليس شرطاً. ولكن أفهمها أنني رجل. دعني أُحب مرة وسترى.

ووصلنا إلى نهاية حديقة غازي. وامتدت أمامنا ساحة الطيران غير المبلطة تتفرع منها أربعة شوارع وكان دفء الظهر قد أخذ يسري في الجو. ولاحت الدنيا شقراء ولو أن الشمس ما زالت خلف السحب المتقطعة. وشعرت بقليل من الانفراج في قلبي، وبرغبة قوية في أن أسير مع صبيح حتى المغرب. وكانت لصبيح مثل هذه الرغبة. وعبرنا ساحة الطيران، واتجهنا صوب السدة. وقال صبيح مسترسلاً:

- روايات الجيب تعلمك كيف تتصرف. كيف تخش وتطلع. كيف تحصل على ما تريد. والبنت تحب الجسور، الملعّب على خمسين حبلاً لا من يبكي ليلاً ونهاراً. وماذا ينفعها البكاء؟

قارنت ذلك بما وقع لي فلم يسعني إلا أن أعترف:

- صحيح. أتعرف من الشخص الثاني؟.. ولد ترك المدرسة من الصف الخامس الإبتدائي. وطول النهار يخمش هذا ويتعارك مع ذاك. إنه يحسب نفسه رياضياً. ويتباهى بجسمه.

قال صبيح:

- شفت؟ وهو لم يقرأ روايات الجيب. فكيف لو يقرأها؟ ولكنك في

الصف الثاني المتوسط. وتعرف القراءة أحسن منه. ولو قرأت روايات لصرت أشطر.

ومشيت على السدة الترابية قليلاً. وصدمتنا رائحة نفط أسود منبعثة من خط أسود عريض تسير عليه السيارات على طول السدة. فنزلنا منها إلى طريق جانبي، واشترينا بأربعة فلوس «باسورك» من بائع أفطس الأنف. وكان الباسورك مبللاً مالحاً جداً، وأغلبه فارغ.

- إن هذا البائع يستحق مسدساً.

قال صبيح بسرعة وكأنه يتوقع هذه الجملة مني:

- أتعرف؟ إن ارسين لوبين أقل عصابجي في الدنيا استعمالاً للمسدس. ولكنه كان يملك دماغاً أكبر من أكبر صخرة. راضع من إبليس. يعرف حيل العالم كله، وبنظرة واحدة يعرف بماذا تفكر.

قلت أخاطب نفسي: أنا أحتاج لمثل هذا.

لم يسمع صبيح جيداً فسأل: ماذا تقول؟

- قلت إنه عظيم.

وعدت أقول لنفسي: لا أعرف ماذا يدور في رأس محبوبتي.

- ذات مرة استولى على باخرة بكاملها خلال أربع ساعات مع أنهم أخذوا مسدسه في الميناء. هذه هي الشطارة لا شطارة آلام فرتر.

- أرجوك يا صبيح، لا تتحدث بالسوء عن فرتر.

- أنا لا أتحدث بالسوء. ولكن لماذا قتل نفسه كما تقول أنت؟ لا يقتل نفسه إلاَّ الخائب في الدنيا.

- كان عاشقاً لا أمل له.. (ثم أضفت في سري: مثلي).

- عاشق. آه لو أحببت لعلمت العشاق كيف يتصرفون مع محبوباتهم.

قلت :

ـ لو أحببت لما كان لك نصف هذا اللسان .

ـ لماذا؟

ـ لأنك ستخاف من محبوبتك. أنا أرجف أمامها مثل السعفة .

ـ وهل هي سعلاة حتى أخاف منها؟ أنا لا أخاف من أي مسدس فكيف أخاف من امرأة .

ـ المرأة أصعب من المسدس .

ـ أوه . إذن فكن خائباً طول عمرك ما دمت تخاف من امرأة .

وآلمني قوله . ومشينا صامتين عبر أزقة مقعرة تجمع في وسطها ماء المطر ، وبيوت بلا نوافذ ، حيطانها طينية واطئة ما زالت هشة من مطر يوم أمس . وأحسست أنني أسير في مدينة غريبة . وتوقعت أن يهبط عليَّ في أية لحظة شخص من فوق الحائط ، بيده مسدس ، وعلى عينيه قناع مثل ذلك الرجل الذي رأيته على غلاف روايات الجيب عند سينما غازي . كنت أشعر أنني ذاهب إلى مغامرة ، وحين جعنا أكلنا حلاوة تمر ، وخبز شعير . كانت الحلاوة دافئة هشة ، وللخبز طعم غير اعتيادي زاد إحساسي بجدة ما أرى . كان كل شيء جديداً عليَّ . حتى تلك القطة التي قفزت عبر الماء الراكد إلى الجانب الآخر من الزقاق ، بدت لي أكبر من قطة ، وأشطر من كلب . وكنت أشم روائح ريفية ، رائحة دجاج ، وروث محروق وطين نقي ، وأحس بالهواء البارد النقي يتسرب إلى رئتي . وعندما عدنا في المساء كنت لا أحس بأي تعب ، بل بخفة غريبة ، وبعد أن ارتقينا السدة الترابية قلت لصبيح :

ـ دعنا نعود إلى شارع غازي .

١٩٦٤

يعني حرام؟

ـ عندك فلوس؟

ـ عندي. بس ما أعطيك. أخاف أن تسكر بها.

ضحك. وكانت ضحكته مكتومة بـ «اليشماغ» الذي كان يلف به رأسه. ولكن الرجل رأى اهتزاز كرشه يتدلى من فوق حزام أسود عريض مشدود على «دشداشة» زرقاء مقلمة.

ـ أسكر؟ راح وقت السكر الأصلي.

ورفع ذراعه عالياً ليشير إلى طول الزمن.

ـ إذن، لأي غرض؟

ـ أُريد أروح للحمام. يعني حرام؟

ـ لا، مو حرام.

ـ شفت؟ـ وأدار له وجهه متشجعاً، فرأى الرجل جبينه العالي يلمع في الضوء، وأرنبة أنفه العريضة. وسمعه يقول ـ وحتى إذا سكرت. صار لي شهر ما ذايق العرق. يعني إذا شرب الإنسان في الشهر مرة، حرام؟

لم يجبه الرجل. ذلك من حكم الدين والسنة. وطال الصمت. وخاف السائل من طوله، فقال مستدركاً.

ـ لا، والله، أُريد أن أغسل جلدي.

بقي الرجل في صمته. أثارت هذه الجملة حركة في ذاكرته، واستدعت له صورة قديمة مدفونة في أعماقها. آنذاك لم يكن ذاوياً. هشاً، مترهلاً، كما هو الآن. كان يبدو لعينيه الطفوليتين جباراً ضخماً، مارداً نحاسياً ملتمع الجلد، تتراقص عضلاته، وتكاد تقفز

مع كل حركة من حركاته القوية.
- أبو عطية يعطي.
تنبه الرجل له.
- من أبو عطية؟
- ما تعرفه؟ الله...
أحس الرجل بخيبة آثمة. وكأنما كان يظن أن هذا الثناء موجه له، فإذا هو لغيره.
- إذن، الله يعطيك.
تنهنه، وقال:
- يعطي؟ كان أعطى من زمان. فات الوقت.
كان ذلك أكيداً. فهو الآن لا يثير في نفس الرجل إلا الشفقة والرثاء، والإمتعاض أحياناً. بينما كان في طفولته صاحب أعاجيب. آنذاك كان صوته يرن رنيناً قوياً، وكان يملأ الأرجاء ضجة وحمحمة ولهاثاً. وكان يراقبه من بعيد، من خلال البخار المغبش، في وجل وإعجاب. كان كل رجل يبدو بين يديه ضئيلاً، صدئاً، كامداً، مكوراً على نفسه، مستسلماً له كل الإستسلام. وكان يملك السطوة عليه، والقدرة على أن يقلبه ظهراً لبطن، وجنباً لجنب، وأن يأتيه من أمام ومن وراء، ومن يمين ومن شمال، وأن يضربه هنا، ويطبطب عليه هناك، وأن يسكب عليه المقدار الذي يريده من الماء بالحرارة التي يريدها، والرجل المفعول به لا يكاد يحتج. لا يرفع صوته إلا همهمة متوسلة، وأنيناً متوجعاً أحياناً وخلال ذلك كان شيء ينمو بين يدي الفاعل، يولد شيئاً فشيئاً، من خلال الحك والتدليك، وطاسات الماء، ورغوة الصابون، كان إنساناً يخلق من جديد، يسلخ جلده على الأقل، ويلبس جلداً جديداً،

لامعاً ، متألقاً ، صقيلاً ، متورداً ، مفعماً بنسغ حياة جديد . وعندما كان يلف بالفوطة كان يبدو وكأنه وليد جديد خرج من بين يدي مولدة ماهرة .

ـ تذكر لما كنت ادلك لك؟

ـ أذكر .

هزَّ رأسه ، تضخياً لعمله ، وأشار بذراعه إلى الرجل وكأنه اتهام لا مرد له :

ـ أنا أعرف جسمك أكثر مما تعرفه أم ولدك .

وفكر الرجل بمجون وحنق : إنها لا تعرف إلا النصف الأول من جسدي ، وأقل من ذلك . وحق هذا زهدت فيه . وعافته . والآن أنا وأنت وحدنا في البيت . وسمعه يقول :

ـ كنت تخاف مني خوفك من الحية . تذكر؟

هزَّ الرجل رأسه . وقال في نفسه : أذكر . . أذكر لما دفعني أبي إليك لأول مرة قائلاً : هذا جواد سيدلك لك . أنا تعبان .

ـ كنت فروجاً بين يدي .

وتذكر الرجل أول عمل قام به جواد . خلع المئزر الذي كان الطفل يحكم شده حول خصره . خلعه بقوة وشناعة أفزعته كثيراً ، وكأنه خلع الرجولة التي كان يستشعرها بعد أن أصبح يستحم في حمام الرجال مع أبيه ، حين صار حمام النسوان يحتج على دخوله!

ـ وتصوَّر ؛ كم كان أبوك يعطيني؟

ـ كم؟

ـ عشرة فلوس .

ضحك الرجل من أعماقه ، سرى ذلك عنه .

- قليلة.
- في ذلك الوقت كانت تساوي أكثر من مائة فلس، إذا تكرمت وأعطيتها لي الآن.
- تأمر.

ولكن الرجل لم ينهض من مقعده، ولم يأت بحركة. كان يود لو يداعبه. فإن ذهاب زوجته مع ولديها زعلانة إلى بيت أبيها جعله مهموماً، ثقيل الرأس يغلي الدم في عروقه، ويكاد ينبجس من مؤخرة رأسه. وقد هبط عليه جواد سلوى من ملاك الرحمة بالتعساء.

- (تأمر) هذه ما تتصرف بالسوق.
- لا تستعجل. الحمام يبقى حتى منتصف الليل.

هدأ جواد قليلاً. إنطرح بظهره على متكأ الاريكة، وكأنه استسلم إلى ما لا بد منه.. الإنتظار. فانتزاع الفلوس من الناس عملية صعبة ليس مثل جلفهم وتدليكهم.

- تفضل، إحكِ، إسأل.

فوجيء الرجل بذلك. كان منضوب النفس خاوي الرغبة. فسأله ما ورد على لسانه:

- كم سنة اشتغلت بالحمام؟
- سبع عشرة.

وأشار بثلاث أكف مفرودة الاصابع، وأصبعين أخريين. سبعة عشر عاماً!

- عمر!

تنهد جواد وقال:

- لو جمعت الوسخ اللي طلّعته من جلود الناس لصار تلاً، ولو

حسبت الصابون اللي غسلتهم به للأخاناً في سوق الشورجه، ولو حسبت الناس اللي غسلتهم لصاروا فرقة في الجيش العراقي.

- ولو حسبت الفلوس اللي أخذتها؟

- وين الفلوس؟

وأجاب على سؤاله بأن مرر أصابعه على فمه نزلاً. يعني ازدردت خبزاً.

- يعني ما حصلت من الحمام؟

- بلى.. حصَّلت! أي نعم، بلى حصَّلت ذخراً راح يبقى معي حتى الموت.

وكان واضحاً أنه يسخر. ولم يرد الرجل أن يثير شجنه، أن يجعل حديثه مأساوياً. كان يود فقط أن يطرد الوحشة بحديث فارغ. فالوحشة في بيت فرغ بعد امتلاء تجثم على الصدر كالكابوس. إلا أن جواداً أصر على أن يسمي ما حصل عليه: الروماتيزم!

وقال الرجل في سره، وقد غشيته غاشية من الحزن: والروماتيزم أو ضغط الدم، كلاهما نتيجة لشيء واحد. الحاد والبارد، تقلب الجو، عدم الإستقرار. وأحس الرجل بفوران الدم في مؤخرة رأسه.

- الروماتيزم هو الذي طلَّعك من الحمام؟

- الروماتيزم! هه!

وكان الرجل يقول ذلك لغاية في نفسه، وكأنه يريد أن يعرف هل الضغط الذي يعانيه هو الذي سبب خروج زوجته من البيت، أم خروجها هو الذي سبب ضغط الدم؟

- كنت راضياً بالروماتيزم؟ (مثل رضاي بضغط الدم؟)

- ليش طلعت، إذاً؟

- قصة طويلة، كأنك لم تسمع بها. أم الولد لم تحكي لك؟

ـ قصة مسعودة؟

ـ مسعودة السبب والمسبب.

وعاد جواد يذكره بقصة نسيها من تراكم أحداث أسوأ منها. كان جواد قد تعهد مسعودة اليتيمة، وتكفلها، وساعدها كثيراً، واستطاع أن يقنع صاحب الحمام بأن يعطيها مناشف الحمام لتغسلها، بينما كان ابنه يريد أن يعطيها لنساء أخريات دخل معهن في منفعة مشتركة. كسب مقابل متعة. واشتغلت مسعودة في غسل مناشف الحمام عدة سنوات. وفجأة فقدت منشفتان، واهتبلها الفتى الشقي ابن صاحب الحمام، فرصة للنيل من مسعودة، ومنع عنها الغسيل. وتعقد الوضع حين وُجِدت المنشفتان عند مسعودة في حمام النساء بعد شهر.

ـ سرقتها؟

ـ سرقتها! بنت حلوة وبعمر الورد، وما عندها منشفة تتنشف بها، يعني حرام تتنشف بالمناشف التي ايبست أصابعها؟

ـ ولكن الذنب وقع عليك.

ـ بعدها طردوني. والحقيقة طردني موسى بك صاحب الحمام وكان لا يريد غسالة شريفة، مثل مسعودة.

لحظات صمت. ثم سأله الرجل:

ـ ومسعودة؟ أين هي الآن؟

لم يجب جواد مباشرة، بل سكت منشغلاً بتعديل وضع يشماغه ثم قال بصوت مخذول:

ـ تزوجت.

ولم يشفعها بـ « يعني حرام تتزوج؟ »، بل أضاف باهت الصوت: « راحت! »

وفكر الرجل مع نفسه: ربما كان يطمع بشيء منها؟ فقال «راحت» دون أن يبرر سلوكها الإنساني بجملته المعهودة، ربما كان يأمل بأن هذا العصفور الذي رعاه، لا بد أن يستجيب إلى لمسات يده أخيراً. ولكنه طار إلى عش رجل آخر.

- إستقرت.

- الله يعلم. وكأنها ما كانت مستقرة. كانت تحصّل من الحمام ستة دراهم بالاسبوع.

- ولكن المرأة تسعى إلى رجل.

همهم جواد بجملة لم يفهمها الرجل. إعتراض؟ أسف على أن لا يكون الرجل هو؟ كان ينظر اليه نظرة كثيفة وعميقة. وكأنه يقول له: طال الإستجواب، يا رجل، والفلوس نسيتها! كان يبدو غامضاً وهو متلثم في يشماغه، يخفي تمتمة الشفتين، وتوتر الشاربين ولم يعد في الجو أي مرح الآن. نهض الرجل ليجلب له الفلوس.

ولما خلا إلى نفسه أخذ يحس بنفس السأم والوحشة التي يحس بها في كل مساء وليل وصباح طوال الأيام السبعة التي فارقته فيها زوجته وولداها. طاف في هذه الردهة التي كانت ملعباً للأطفال، ومبعث صور التلفزيون المرتعشة، وأغاني ما يطلبه المستمعون، والنكات والزعل، والعراك، وكل ما ليس له حصة فيه ولا مشاركة.

والقى نظرة على غرفة الاطفال. سريران متقابلان، وكرسيان صغيران، وطاولة عليها أرنب من مخمل، وعلى الحائط رسوم مقطوعة من مجلات ملونة. والغرفة الآن خالية، والطفلان منحشران مع أمهما في غرفة صغيرة. والأم تقرأ في اذنيهما كلمات الهجو والعتاب على الأب القاسي، والاناني، الذي لا يحب إلا نفسه

وكتبه. وترك الغرفة إلى حجرة نومه. سرير عريض، ودولاب ملابس، وصوان زينة، وتلك المكتبة الصغيرة الملعونة التي كانت الزوجة لا ترتاح لها، وتعتبرها نشازاً، بالوعة في غرفة نوم. هي والبالوعة لا تمتلئان. تستنزفان ولا تشبعان. وكانت تريد أن تسد هذه البالوعة بماكنة خياطة!

خلع الرجل نعاله، واستلقى واضعاً يديه تحت رأسه، وقدماً فوق قدم. واستسلم لأفكاره. هو حر الآن في أن يستسلم لها. بينما كانت لا تروق للزوجة.أليس بطراً أن تضطجع هذه الضجعة، وتفكر بأفكار ليس لها صوت تسمعه لتعرف ما هي. كانت تضيق بها، لأنها تقذفه خارج أسوار العائلة التي يجب أن يكرس لها نفسه، وماله، ووقته، .وأفكاره، وأعصابه، وكانت الزوجة تحرق هذه الأعصاب والصمت الذي ترتخي فيه بدندنة لا تنقطع.

قال لها: هذا طغيان. أنا رجل مثقف، خريج كلية، ألا يحق لي أن أشتري كتاباً بنصف دينار؟ قالت: «كأنك لم تشبع من الكتب! هذه الخزانة تكاد تنفجر بها». «لم أقصر عليك في شيء. أبوك البزاز لم يكسك مثلما كسوتك أنا» وعادت إلى حكايتها التي لم تشبع منها: «لم يقصر؟ خلال عشرة أعوام وأنا ألح عليك بأن تشتري ماكنة خياطة!.» «أوه، إحسان! هذا مو إنصاف. كلما جمعت فلوساً قليلة وأردت أن أشتري لك انبثقت لك حاجات أخرى، وصرفتها. أما أنا فلم تتبدل حاجاتي: الكتب وزجاجة من البيرة أحياناً». «هذا هو! أنت لم تخلق إلا لهذا! كتب وخمرة!» وضاق بها، ورفع صوته عليها، على الكابوس الذي يشد على خناقه. وتطور الجدل. وخُيِّل إليه أن الولدين ينصتان إليهما. وفي الصباح ذهب إلى عمله، ولما عاد كان البيت فارغاً.

أنزل قدمه، وتمرغ الرجل في السرير البارد، سرير الأحزان كما كان يسميه، كلما خلا إلى إحسان فيه، واستلقى طارداً عنه الوحشة التي تقصم ظهر البعير، وتحول الحديث شيئاً فشيئاً إلى شكوى، إلى تألم، وحتى إلى بكاء. مأساة وكانت لا تجد أية مأساة في أن يصاب رجل بضغط دم عالٍ، وهو في الخامسة والثلاثين، ولكن المأساة أن تحتل مكتبة مكان ماكنة خياطة! وكانت دائماً تحس أنها مظلومة. المداعبة والاستعطاف يثيران شجنها، يشدانها بالحاح إلى مطاليبها التي لم تستجب. وكانت كل مطاليبها، شكاواها تتجمع في ساعة السرير تلك، في ساعة النجوى والمناغاة واللذة، وتبلغ ذروتها كلما بلغ هو ذروته. حتى اقترنت اللذة عنده بالإغتصاب.

أوه، تباً، سمع دقاً على الباب. ألعلها هي؟! يا رب!

نظر إلى ساعته. كانت قد تجاوزت العاشرة. وساوره الشك وهو يبحث عن نعليه.

وأصيب بخيبة حين سمع سعال رجل، وهو يقترب من الباب. وبعد ثوان كان جواد أمامه.

- أشو جيت؟

- أُريد أنام عندك. أم الولد طالعة.

ودخل غير مدعو، وشم الرجل رائحة عرق.

- راح تخليني ما أنام الليلة.

قالها الرجل بضيق، وكان يعرف من بعض الليالي التي قضاها جواد عنده، أن المدلك القديم يلطم فخذه بقوة اثناء النوم، ويتمتم تمتمة موحشة، وكأنه يقوم بتدليك في نومه.

- راح أنام نومة هادئة. حمام ونص ربع عرق!

تأفف جواد نفثات خمر، وقال:

- بعد الحمام أردت أن أتدفأ بنص ربع عرق، يعني حرام؟
- مو حرام، إذا لم تشرب منذ شهر.

ضحك جواد، وزايل الرجل شيء من غمه. جلس المدلك على نفس الأريكة. تلمس مفرشها بباطن كفه، وقال:

- زين... ناعم! راح أنام نومة عميقة... أم الولد زعلت للتالي؟
- الله يعلم.
- لازم تداريها. النساء حمامات ما يأنسن أبداً. عيونهن دائماً في السماء.. حَب، حَب.. لازم تنثر لهن الحب دائماً... لقط.. وإلا طارت.

وقال الرجل لنفسه: ربما هي الحكمة التي اكتسبها جواد من قصة مسعودة إذن، فقد كان يطمع في شيء منها! قال الرجل في شيء من التهكم الملتاع!

- كل فلوسنا للحَب... اللقط.
- المرأة تحتاج إلى مداراة.
- معلوم.
- ولكن الجزاء غير معلوم. يا ليتك تعرف كيف اشتعلت لحورية.
- من حورية هذه؟
- الفنانة اللي كنت أشتغل في بيتها. ثلاث سنوات. ما تعرف؟
- أعرف كنت تشتغل (وخجل أن يقول خادماً) في أحد البيوت. ولكن لا أعرف عند من؟
- عند فنانة. حورية على اسمها. ثلاث سنين. كانت لا تناديني إلا بـ «عيني، حبيبي جواد» حتى حسبتها تحبني من صدق. أنا رجل أيضاً، حرام تحبه امرأة؟
- لا، مو حرام.

ـ كنت أخدمها على أربعة وعشرين قيراط .

ومن خلال الاسئلة التي ألقاها الرجل تباعاً فهم أن جواداً كان مكلفاً بحمام الفنانة فقط . وكان لها حمام أبيض كبير فيه حوض صقيل ، ومرآة كبيرة ، ورف مملوء بالعطور والصابون والدهون ، واصباغ الشعر ، ومانيكور الاظافر ، شبهه جواد بصالون « حلاقة الأمراء » .

ـ وكنت تغسل فيه؟

ـ لا ، كانت لا تقبل . كنت أغسل في السطح . حقها! شافتني مزنجر .

ـ هذه التي حسبتها تحبك .

ـ الحب له حدود .

وقص عليه كيف كان يهيء الحمام كل يوم . يغسله قبل الإستحمام ، وبعد الإستحمام ، وينشف الارض . وكانت الروائح تدير رأسه . ولكنه كان راضياً بهذا العمل . تقرحت يده من الزرنيخ ، أو لا يدري ما هو ، تلك المادة النافذة الرائحة التي يستخدمها للتعقيم . ومع ذلك قبل ورضي . وبمثل الجهد الذي كان يبذله في الماضي لتنظيف إنسان ، جلد بشري ، ليجعله يلمع كان يلمّع حمام الفنانة ويصقله ، ويعطره ، ويجعله متألقاً مثل جلد بشري معافى .

كان جواد يطبق رأسه على صدره . وظن الرجل أنه غفا . كانت يده الممتدة على مسند الأريكة أكثر بياضاً من جلده ، وكان اليشماغ قد تهدل الآن ، وغطى الوجه كله . كان يتكور كصرة من قماش

مهلهل. ولكن ساقيه النحيلتين كانتا تتأرجحان. ومنهما عرف الرجل أنه يقظان.

- إذن، ليش تركتها؟

هب جواد، وصار للصرة الممزقة شيء من الطول:

- أنا تركتها؟ هي التي تركتني..

- والذنب عليك؟

أعاد السؤال حيويته. حرك يده حركة دائرية مبهمة، حركة استغفار وأسف. ربما. ثم ارتفع رأسه ونظر إلى الرجل، وقال.

- يمكن ذنبي!

ثم قال بصوت حاد متحشرج:

- بس الله يرحم أبوك، يعني حرام مرة بعمرك تشوف مرية ربي كما خلقتني؟ أنا الذي شفت بقدر شعري من الرجال العريانين، ما يحق لي أن أشوف امرأة عريانة؟ يعني حرام؟

كان قد تعب من صقل الحمام وتعقيمه، وتعطيره، وإشعال البوتغاز. وكانت هي تستعجله وتصرخ به، لأنها تريد أن تذهب إلى عملها مساء. وما كاد يخرج من الحمام حتى دخلت، وشرعت تخلع ملابسها.

لاحت له الذراعان البضتان الناصعتان، ثم ربلة الساق الممتلئة الملساء. وكانت قد تركت الباب مواربـاً - سهواً أو استعجالاً - فشجعه ذلك على أن يكمن في مكان لا تراه فيه، ويراقبها تنضو ثيابها. تحل حمالة الثديين فينفر نهدان مرعان منتهيان بقطعتين من الملبس الأحمر. راقبها ترفع ثدييها، وكأنها تزنهما، ثم تتمطى أمام المرآة، هازة ردفيها، معجبة بجسمها

الصقيل ، اللامع ، الغض ، الممتلىء لحماً وطراوة وليناً ونعومة . ثم مدت يديها إلى خصرها ، وخلعت آخر غلالة حريرية عن جسمها ، ورأى جواد . . . . وندت منه شهقة لا إرادية جعلتها تلتفت فتراه يراقبها . صرخت به . . . وبعد الحمام طردته .

١٩٧٢

100.00

دار الفارابي - بيروت